تمهيــــــــــــد

لم تكن للرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر الى المدينة سياسة فى الحرب والمهادنة لأن الجهاد لم يكن قد شرع آنذاك وانما كان تشريعه فى المدينة فى السنة الثانية من الهجرة .

وانما كانت هناك حالتان لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فى نشــــر الدعوة الايمانية وتوحيـد الله واعتناق الدين الاسلامى .

الحالــة الأولــــى :

الدعوة سرا وهى عرض الاسلام على من يثق به النبى صلى الله عليه وسلـــم ويطمئن اليه كخديجة رضى الله عنها وأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم وغيرهم ممن يدعى بالرعيل الأول . كما قام بعض هذا الرعيل بالدعوة الى الاســلام سرا كأبى بكر الصديق رضى الله عـــنه الذى أسلم على يده خلق منهم عثمان رضـى الله عنه والزبير بن العوام رضى الله عنه وغيرهما ممن كان يثق به (١) وصاروا يدعون الى الاسلام والى العقيدة الصحيحة ، فدخل الناس فى الاسلام ارسالا .

الحالــة الثانيـــة : الجهر بالدعوة

بقى النبى صلى الله عليه وسلم يعرض دعوته على الناس بمكة سرا ثلاث سنوات حتى اذا ما أسلم عدد يمكن معه الجهر بالدعوة والاعلان بصوت الحق أمر اللـــــه

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ ١ ص ١٦٥ تحقيق محى الدين عبد الحميد الناشر محمد على صبيح

نبيه صلى الله عليه وسلم أن يظهر دعوته فقال تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) (١) . وقوله عز وجل (وأنذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون) (٢) .

روى الامام البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الاقربين) صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك الا صدقا قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت (تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب) (٣)

وعند ذلك بدأ الطغاة من قريش بتكذيبه كأبى لهب الذى نزلت فى حقه هذه السورة المذكورة آنفا بالدعاء عليه والوعيد الشديد بصليانه جهنم هو وامرأته التى كانت تضع الشوك فى طريق النبى صلى الله عليه وسلم وتؤذيه بالسب والشتم ، وقد أقروا بصدق النبى صلى الله عليه وسلم حينما سألهم (أكنتم مصدّقىّ) فقالوا نعم ، لانهم يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم بالصدق فلم يجربوا عليه كذبا أبدا .

---

(١) سورة الحجر آية ٩٤

(٢) سورة الشعراء آية ٢١٤ ــ ٢١٦

(٣) صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى ج ٨ ص ٥٠١

وكانت سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة ترتكز على التربية الفردية وانتزاع العقائد الباطلة من شرك ووثنية وانكار البعث والنبوات ، وتمكين العقيدة الصحيحة في النفوس والصبر على الأذى والمشاق في سبيل ذلك ، واقامة الأدلة العقلية والوجدانية ليؤمن من آمن عن بينة واقناع ويكفر من كفر عن تعنت وعناد .

وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ويلقن في هذا العهد المكي فصنع رجالا كانوا اللبنات الأولى التي منها أسس الاسلام وعليها قام صرحه العالي . وصبر الرسول صلى الله عليه وسلم على الأذى بمكة وتحمل المشاق وصبر أصحابه رضي الله عنهم ما وسعهم ذلك وقريش ماضية في تعذيب المؤمنين بغية تحويلهم عن ايمانهم الى عبادة الأوثان . وكانت تتفنن في تعذيبها المؤمنين وخاصة من ليس له أحد يحميه ويجيره منها فحبستهم وعذبتهم بالضرب والجوع والعطش وبالقائهم في الرمضاء اذا اشتد الحر كما فعل أمية بن خلف ببلال الحبشي الذي اشتراه أبو بكر الصديق فأعتقه .(١)

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يلقاه أصحابه أمرهم بالهجرة الى الحبشة فرارا ~~بدينهم~~ / وسلامة لأرواحهم من الكفار . أما هو عليه الصلاة والسلام فقد كان عمه أبو طالب يحميه منهم فبقي في مكة يعرض نفسه ودعوته على الناس . ولكن قدر الله أن يموت أبو طالب الذي كان يدافع عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشتد الأذى عليه صلى الله عليه وسلم وضاقت عليه مكة فرأى أن يخرج الى الطائف لعله يجد من يستجيب له فلما انتهى الى الطائف التقى بجماعة من ثقيف وكلم ساداتها الذين ينتهي / اليهم الأمر فيها ودعاهم الى الاسلام فاذا هم ليسوا بأحسن حالا من أهل مكة اذ ردوا عليه شر رد واستهزأوا

---

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٠٩

به وأغروا به سفلهاء هم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به • ولما يئس الرسول صلى الله عليه وسلم من استجابتهم طلب منهم أن يكتموا عليه الخبر حتى لا يبلغ أهل مكة فيمنعونه من دخولها عليهم ويزدادوا ايذاء له ولأصحابه فلم يفعلوا ما طلب منهم من كتمان الخبر ، مما دعاه للدخول في جوار المطعم بن عدى الذى أجاره وحماه حتى طاف بالبيت وعاد الى منزله •(١)

واستأنف الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته الى الله في مكة لم يرده عن ذلك راد ولا مستهزئ ، فأخذ يعرض أمره وما جاء به من ربه على الناس المستقر منهم بمكة والوافد اليها في موسم الحج لأنه على ثقة تامة من نصر الله له وأنه تعالى سيظهر دينه وينصر رسوله ويخذل أعداءه • لكن المشركين لم يتركوه يبلغ دين الله الى عباد الله بل حذروا الناس من تصديقه واتباعه وسماع كلامه قائلين لهم : انه ساحر وصابئ ترك دين آبائه وأجداده فلا تصدقوه ولا تجلسوا اليه •

فيقول له الناس : لو كنت صادقا لكان قومك أحق بك (٢) •

ولم يحط ذلك من عزم النبى صلى الله عليه وسلم في الاستمرار في دعوته بل واصل عرض نفسه ودعوته على احياء العرب يغشاهم في منازلهم في أيام الحج لعله يجد من يجيبه الى دعوة الحق وتوحيد الله سبحانه وتعالى •

قال ابن اسحاق فيما رواه عنه ابن هشام : وحدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله ابن عباس قال سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبى قال : انى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بنى فلان انى رسول

---

(١) سيرة النبى لابن هشام باختصار ج ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٥

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٨٦

الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به . قال وخلفه رجل أحول وضئ له غديرتان عليه حلة عدنية فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا اليه قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ان هذا الرجل انما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بنى مالك ابن أقيش الى ماجاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال قلت لأبى : يا أبت من هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب (١) .

ومن هذا يتبين لنا الجهد الذى كان الكفار يبذلونه لوقف انتشار الدعوة الاسلامية وما كان يلقاه النبى صلى الله عليه وسلم من شدة الأذى منهم عامة ، ومن ذلك اللئيم الحاقد على الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته خاصة .

قال ابن اسحاق : ولما أراد الله عز وجل اظهار دينه واعزاز نبيه وانجاز موعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينا هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا .

فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم قالوا : نفر من الخزرج قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا :

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨

نعم قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن قال وكان مما صنع الله بهم فى الاسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شئ قالوا لهم : ان نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم قتل عاد وارم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا : انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ثم رجعوا الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا (١) .

وكان عددهم فيما ذكر ابن اسحاق ستة نفر وذكر اسماءهم فوصلوا المدينة وذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته فلم تبق دار من دور الانصار الا فيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢)

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٢٩٢
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٣

بيعـة العقبـة الأولـى

وفى الموسم الذى بعد هذا اللقاء قدم الى الحج منهم اثنا عشر رجلا فلقـوه بالعقبة . قال ابن هشام فيما رواه عن ابن اسحاق : فبايعوا رسول الله صلى اللـه عليه وسلم على بيعة النساء وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب .

قال ابن اسحاق : ذكر ابن شهاب الزهرى عن عائذ الله بن عبد الله الخولانـى أبى ادريس أن عبادة بن الصامت حدثه قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلـم ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنـا ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له وان سترتم عليه الـى يوم القيامة فأمركم الى الله عز وجل ان شاء عذب وان شاء غفر (١) .

وقد روى هذا الحديث البخارى فى عدة مواضع من صحيحه (٢) ورواه مسلم والامـام احمد وغيرهم .

وأخرج البخارى بسنده عن أبى ادريس ان عبادة بن الصامت رضى الله عنه وكان شهد بدرا وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابـة من أصحابه : بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥ — ٢٩٦

(٢) أخرجه فى كتاب الايمان ، وفى الحدود وفى مناقب الانصار

أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عاقبه فبايعناه على ذلك(١) .

وظاهر ماذكره ابن اسحاق أن الرسول صلى الله عليه وسلم بايع أصحابه ليلة العقبة الأولى على بيعة النساء وهو ما يفيده ظاهر رواية الصحيحين .
لكن قد صح بالاتفاق أن سورة الممتحنة التي جاءت فيها بيعة النساء نزلت بعد الحديبية فكيف تكون البيعة قد حصلت عند العقبة على بيعة النساء وبينها وبين بيعة العقبة ست سنوات أو أكثر ؟

فقد روى الواحدي في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن) الآية قال ابن عباس ان مشركي مكة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده اليهم ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية فأقبل زوجها وكان كافرا فقال : يا محمد رد امرأتي فانك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد .
فأنزل الله تعالى هذه الآية . (٢)

---

(١) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ج ١ ص ٦٤

(٢) أسباب النزول لعلي بن احمد النيسابوري الواحدي ص ٢٤١ ط الأولى ١٣٧٩هـ

وهو صريح في بيان وقت نزول السورة وانها نزلت في الحديبية .

قال ابن كثير بعد أن نقل أسماء الاثنى عشر الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة قال : والمقصود ان هؤلاء الاثنى عشر رجلا شهدوا الموسم عامئذ وعزموا على الاجتماع برسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها بيعة النساء وهي العقبة الأولى .

ثم نقل حديث عبادة المذكور عند ابن اسحاق الذى فيه قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ان لا نشرك بالله شيئا ... الحديث .

ثم قال وهذا مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق عن الزهرى به نحوه (١) .
وذكر في ازالة هذا الاشكال مايلي :

قال : وقوله على بيعة النساء — يعني وفق ما نزل عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة وليس هذا بعجيب فان القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب في غير ما موطن كما بينا في سيرته وفي التفسير ، وان كانت هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو فهو أظهر والله أعلم (٢)

وقال ابن حجر نقلا عن ابن المنير : أدخل حديث عبادة بن الصامت في ترجمة بيعة النساء لأنها وردت في القرآن في حق النساء فعرفت بهن ثم استعملت في الرجال (٣) .

وكل هذا لم يزل الاشكال عندى .

---

(١) أي بالاسناد الذى عند ابن اسحاق وبلفظه
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٥٠ — ١٥١
(٣) فتح البارى لابن حجر ج ١٣ ص ٢٠٤

لكن ذكر الحافظ بن حجر فى الفتح ان المبايعة المذكورة فى حديث عبادة على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة وانما الذى كان ليلة العقبة هو ما ذكره ابن اسحاق وغيره فى المغازى (١) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فبايعوه على ذلك وعلى أن يرحل اليهم هو وأصحابه .

وفى كتاب الفتن (٢) من حديث عبادة أيضا قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ... الحديث .

قال وأصرح من ذلك فى هذا المراد ما أخرجه احمد والطبرانى من وجه آخر عن عبادة أنه جرت له قصة مع أبى هريرة عند معاوية بالشام فقال : يا أبا هريرة انك لم تكن معنا اذ بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والنشاط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى أن نقول بالحق ولا نخاف فى الله لومة لائم وعلى أن ننصر رسول الله اذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة .

فهذه بيعة رسول الله التى بايعناه عليها فذكر بقية الحديث .

وقد وضح أن هذا هو الذى وقع فى البيعة الأولى ثم صدرت مبايعات أخرى والذى يقوى أنها وقعت بعد فتح مكة بعد أن نزلت الآية التى فى الممتحنة وهى قوله تعالى (يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك) ونزول هذه متأخر بعد قصة

---

(١) ذكر ذلك فى البيعة انظر سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٢) انظر فتح البارى لابن حجر ج ١٣ ص٥

الحديبية بلا خلاف والدليل على ذلك ما عند البخاري في كتاب الحدود من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري في حديث عبادة هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايعهم قرأ الآية كلها وعنده في تفسير الممتحنة (١) من هذا الوجه قال قرأ آية النساء ولمسلم من طريق معمر عن الزهري قال : فتلا علينا آية النساء قال : ان لا تشركن بالله شيئا .

وللنسائي من طريق الحارث بن فضل عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا تبايعوني على ما بايع عليه النساء أن لا تشركوا بالله شيئا ... الحديث.

وللطبراني من وجه آخر عن الزهري بهذا السند بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما بايع عليه النساء يوم فتح مكة .

ولمسلم من طريق أبي الأشعث عن عبادة في هذا الحديث (أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء) .

ثم قال ابن حجر : فهذه أدلة ظاهرة في أن هذه البيعة انما صدرت بعد نزول الآية بل بعد صدور البيعة بل بعد فتح مكة وانما حصل الالتباس من جهة ان عبادة ابن الصامت حضر البيعتين معا وكانت بيعة العقبة من أجلّ ما يمتدح به فكان يذكرها اذا حدّث تنويها بسابقته فلما ذكر هذه البيعة التي صدرت على مثل بيعة النساء عقب ذلك توهم من لم يقف على حقيقة الحال أن البيعة الأولى وقعت على ذلك (٢)

---

(١) نفس المصدر تفسير سورة الممتحنة جـ ٨ ص ٦٣٧ — ٦٣٨

(٢) أنظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ج ١ ص ٦٦ - ٦٧

وهذا في الحقيقة يكشف النقاب عن الاشكال الذى وقع في هذه المسألة وانما الذى تحدث به عبادة بن الصامت من كونهم بايعوا على بيعة النساء هو متأخر عن بيعة العقبة وبيعة النساء ، وأن البيعات كانت متعددة فهى مما وقع متأخرا والله أعلم .

قال الدكتور الشيخ محمد أبوشهبه : وهذا الذى ذكره الحافظ هو الذى يجب أن يصار اليه فهو — رحمه الله — من أعلم الناس بالقرآن وتنزلاته والسنة وطرق الجمع بين رواياتها المختلفة ، وبالسيرة وتواريخ الصحابة ، وله انتقادات كثيرة صائبة على ابن اسحاق وغيره من كتّاب السير وتاريخ الرجال (١) .

وعلى هذا تكون البيعة الأولى هى ما جاء فى حديث عبادة ابن الصامت ونصها : عن أبى جنادة بن أبى أمية قال : دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا أصلحك الله حدّث بحديث ينفعك الله به سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعانا النبى صلى الله عليه وسلم فبايعناه فقال فيما أخذ علينا ان بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وان لا ننازع الأمر أهله الا ان تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان (٢) .

فلما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماذكروا نصرف القوم أرسل النبى صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير يقرؤهم القرآن ومعلما ومرشدا وناشرا للاسلام فى أهل المدينة فنجح مصعب فى مهمته التى انتدب لها خير نجاح واستطاع أن يتخطى

---

(١) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة ، للدكتور الشيخ محمد محمد أبوشهبه ج ١ ص ٤٥٦

(٢) صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى ج ١٣ ص ٥

العقبات التي عادة ما تعترض دعاة التوحيد والخير والسلام حتى أصبح أكثر بيوت الأنصار ــ الأوس والخزرج ــ عامرا بالاسلام وما هناك بيت من بيوتهم الا وفيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والتحدث عنه وعن ما جاء به من رب العالمين وأسلم من زعمائهم وساداتهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير (١) فكان لاسلامهما الاثر العظيم في اسلام قومهما وذلك بفضل الله تعالى ثم بحسن دعوة مصعب وطريقته في عرض الاسلام وبيان محاسنه .

---

(١) انظر سيرة النبي لابن هشام جـ ٢ ص ٢٩٤

بيعـة العقبـة الثانيـــة

وفي العام التالي أتى الى الحج جماعة ممن أسلم مع حجاج قومهم من أهـــل المدينة وكان عدد المسلمين ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين قدموا مكة فواعدوا النبـى صلى الله عليه وسلم العقبة حتى اذا كانت الليلة التي واعدوا فيها الرسول صلـــى الله عليه وسلـــم ومضى ثلث الليل خرجوا يتسللون مستخفين عن الناس حتى اجتمعـوا في الشعب عند العقبة فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلـم ومعه عمه العباس أراد أن يتوثق له من القوم ويحضر البيعة فأخبرهم أن الرسول في عزة ومنعة من قومه وأبـى الا الانحياز اليهم وشرط عليهم أن لا يخذلوه ولا يسلموه لمكروه .

وتكلم الرسول صلى الله عليه وسلم وتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاســـلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (١) فبايعنـــا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة (٢) ورثناها كابرا عن كابر .

واعترض القول أبو الهيثم بن التيهان وقال : يا رسول الله ان بيننا وبين القـــوم حبالا — يعني اليهود — وانا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل الـــدم الدم (٣)

---

(١) الأزر أي النساء كنى عنهن بالأزر وقيل أراد أنفسنا ، النهاية في غريب الحديث ج ١ ص ٥٤

(٢) الحلقة السلاح عاما وقيل الدروع انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الاثير ج ١ ص ٤٢٢

(٣) أي تطلبون بدمي وأطلب بدمكم ودمي ودمكم شئ واحد نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٦

والهدم الهدم (١) انا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم •

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الأوس والخزرج الذين بايعوه أن يخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا (٢) يكونون على قومهم ضمناء فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ذكر اسماءهم ابن هشام فى السيرة النبوية • (٣)

وبذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ينظم أتباعه خارج مكة ، ليكونوا على استعداد لبناء دولة جديدة فى المدينة واستقبال من يلحق بهم من اخوانهم المهاجرين المضطهدين بمكة •

ان بيعة العقبة هذه بما أبرم فيها من مواثيق وما دار فيها من مداولات تجلى فيها الصدق والاخلاص وظهرت فيها روح الفداء والاستبسال والثقة التامة من المتبايعين كانت نواة خير غرسها محمد صلى الله عليه وسلم ونقل شتلتها الأنصار الى المدينة فكانت خير تربة صالحة نمت هذه الغرسة التى تعهد سقيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأوفياء رضى الله عنهم حتى أتت ثمارها يانعة يجنيها المسلمون الى يومنا هذا •

---

(١) الهدم ، يروى بسكون الدال وفتحها وبالتحريك القبر أى أقبر حيث تقبرون وقيل المنزل أى منزلى منزلكم وبالسكون والفتح أيضا : اهدار الدم يقال دماؤهم بينهم هدم أى مهدورة والمعنى ان طلب دمكم طلب دمى وان أهدر دمكم اهدر دمى لاستحكام الألفة بيننا) نفس المصدر جـ ٥ ص ٢٥١

(٢) النقيب شاهد القوم وضمينهم وعريفهم انظر القاموس المحيط لفيروزابادى جـ ١ ص ١٣٩

(٣) سيرة النبى لابن هشام جـ ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٣

الاذن بالهجرة الى المدينـــة

بعد أن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم البيعة من الأنصار على الايواء والنصرة أصبح في المدينة مؤمنون ينشرون الاسلام هناك وصار للمسلمين قاعدة اسلاميـــة يهاجرون اليها . وكان هذا مما أغضب كفار مكة فازداد أذاهم للمسلمين ونالوا منهم أكثر من ذي قبل من السب والشتم وأنواع الأذى حتى أن المسلمين شكوا مايجدونه الى الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى في المنام أنه هاجر الى أرض بها نخيل فذهب ظنه أنها اليمامة أو هجر (١) ثم استبان له أنها المدينـــة (٢) وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها فخرجوا ارســـالا (٣) .

وذكر ابن اسحاق أن أول من هاجر الى المدينة من أصحاب النبي صلى الله عليـــه وسلـــم أبو سلمة بن عبد الأسد وكان قدم من الحبشة فبلغه اسلام من اسلم مـــن الأنصار فهاجر قبل بيعة أصحاب العقبة وهو الذي فرق المشركون بينه وبين زوجتـــه وابنه بسبب الهجرة فكانت أم سلمة تقول والله ما أعلم أهل بيت في الاسلام أصابهـــم ما أصاب آل أبي سلمة وما رأيت صاحبا قط أكرم من عثمان بن طلحة (٤) .

ثم أذن الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة .

---

(١) هجر اسم بلد في البحرين معروف انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الاثير جـ٥ ص ٢٤٤

(٢) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري جـ ٧ ص ٢٢٦

(٣) ارسالا : جمع رسل أنواجا وجماعات

(٤) كان عثمان هذا هو الذي رحلها الى المدينة فلحقت بزوجها هي وابنها ، انظر السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣

أخرج الامام احمد (١) عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة وأنزل عليه (وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) (٢) .

وروى الطبري عن الحسن في قوله تعالى (وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) قال كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه وأراد الله قتال أهل مكة فأمره أن يخرج الى المدينة فهو الذى قال الله (أدخلني مدخل صدق) وذكر عن قتادة (مدخل صدق) المدينة (ومخرج صدق) مكة (٣) ورواه ابن كثير عنه بمثله (٤) .

ثم عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الخروج من مكة الى المدينة مهاجرا فذهب الى أبي بكر الصديق فأخبره بما اذن الله له به من الهجرة وعزمه عليه فطلب أبوبكر أن يرافقه في تلك الرحلة فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك ، فسر أبوبكر رضي الله عنه وجهز لهما راحلتين واستأجر رجلا يدلهما الطريق وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من منزله رغم تشديد قريش الحصار حوله الذين دبروا له المؤامرة في دار الندوة ليقضوا عليه لكن الله تعالى أخبره بمكرهم وأنجاه من كيدهم فخرج الى طريق غير معهود السير معه الى المدينة واختبأ في غار ثور حتى هدأ عنه الطلب فواصل سيره الى المدينة ومعه الصديق رضي الله عنه الذى حاز هذا الشرف العظيم بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نوه الله بها في القرآن الكريم .

---

(١) مسند احمد مع ترتيبه للساعاتي جـ ١٨ ص ١٩٥ — ١٩٦

(٢) سورة الاسراء آية (٨٠)

(٣) تفسير ابن جرير الطبري جـ ١٥ ص ١٠٠ — ١٠١

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٨

وكان الأنصار في المدينة يخرجون لاستقباله قبل أن يصل فلما وصل كان نزوله بقباء فكان أول عمل قام به صلى الله عليه وسلم تأسيس مسجد قباء وبقي هناك أربعة أيام ثم رحل الى داخل المدينة فبنى مسجده الشريف . ثم آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة توارث فكان المهاجر يرث الأنصاري والأنصاري يرث المهاجر فهي اخوة على الحق والمواساة . وهذان العملان منه صلى الله عليه وسلم من الأعمال البارعة حقا التي كانت بتوفيق الله تبارك وتعالى ، ومن أهم الأمور التي تؤكد الروابط الاجتماعية بين المسلمين خاصة في هذا الظرف الذي تقتضي فيه حالة المسلمين التكاتف وجمع الكلمة ، فأعداؤهم من المشركين يتربصون بهم ، واليهود محيطون بهم وهم أهل الكيد والحقد على الأنبياء فلابد أن يتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الجو ما يلائمه فأعطت هذه المؤاخاة دورا عظيما في المجتمع المسلم بالمدينة، هذا من ناحية المؤاخاة .

ومن ناحية العمل الثاني وهو بناء المسجد فالمسجد هو المعقل الأول الذي ينطلق منه صوت الحق ويرفع منه الأذان وفيه تقام الصلاة ويجتمع فيه المسلمون فيتفقد بعضهم أحوال بعض وفيه تطرح المسائل للمشاورات حول تنظيم سير الدعوة الاسلامية وتنفيذ مخططاتها .

والمسجد هو مكان استقبال الوفود ، وهو المدرسة التي يتلقى فيها المسلمون معارفهم وأحكام دينهم ، وهو دار الافتاء يفزع اليه المستفتون في كل نائبة ، وهو المحكمة الشرعية الأولى . والمسجد هو القلعة الاسلامية العظمى التي ينطلق منها جنود الحق لحماية الحق ولهداية البشرية .

لذا كان أول عمل قام به النبي صلى الله عليه وسلم بعد دخوله المدينة هو بناء مسجده الشريف الذي تجتمع فيه كل تلك المنافع

مــوادعــة اليهـــود

ثم رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يضع نظاما للحياة العامة فى المدينـــة يكون أساسا لتحقيق الوحدة بين أهلها فكتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود الذين معهم فى المدينة ليأمن شرهم وخداعهم فاشترط لهم واشترط عليهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . ومما جاء فى هذا الكتاب :

١ — أن جميع المسلمين على اختلاف قبائلهم أمة واحدة من دون الناس .

٢ — فتح الطريق للراغبين من اليهود فى الاسلام وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم (وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم) .

٣ — تقرير حرية الاعتقاد لقوله صلى الله عليه وسلم (وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم) .

٤ — بيان ما يتبع فى فض المنازعات والخصومات لقوله طى الله عليه وسلم (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وان الله على أتقى ما فى هـــذه الصحيفة وأبره) .

٥ — تضمن هذا الكتاب كيف تعامل قريش حيث قال صلى الله عليه وسلم (ولا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصرة على من دهم يثرب (١) .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام — بتصرف — جـ ٢ ص ٣٤٣ — ٣٥١

وبهذه المعاهدة استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمن شر يهود المدينة ويكسب منهم عونا على من هاجم المدينة ، واستطاع أن يتفرغ لاعدائه من كفار مكة الذين أخرجوه من بلده الأول هو وأصحابه بغير حق تاركين أموالهم وأولادهم ولا ذنب لهم الا ايمانهم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

الاذن بالقتال

وكان المسلمون بمكة لم يؤمروا بدفع الظلم بالقتال بل كانوا يؤمرون بالصبر والصفح ودفع الأذى بالتي هي أحسن حتى اذن الله تعالى لهم بالهجرة الى المدينة واذن لهم بالقتال فقال تعالى (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) (١) .

فتناولت هذه الآيات الكريمة الاذن بالقتال وعللت هذا الاذن بما حصل للمسلمين من الظلم وما أكرهوا عليه من الهجرة والخروج من الأوطان بغير حق ، ثم بينت ان هذا الاذن موافق لما تقضي به سنة التدافع بين الناس حفظا للتوازن وردا للطغيان وتمكينا لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم والبقاء على عقيدة التوحيد ، وبينت أنه تعالى لا ينصر الا من ينصره من الذين اذا امكنهم في الأرض عمروها وأطاعوه فيها ،

---

(١) سورة الحج آية (٣٩ ـ ٤٢)

فهذه الآية اذن للمسلمين فيها بالقتال ثم نزلت آيات الأمر به فقال تعالى { وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين } (١) .

تأمر هذه الآيات أن يقاتل المسلمون فى سبيل الله تعالى الذين يقاتلونهم وتأمرهم بتتبعهم حيث وجدوا وتشتيتهم كما شتتوهم من قبل، وتنهاهم عن الاعتداء لانه تعالى لا يحب المعتدين .

وتقرر الآيات الغاية التى تضع الحرب عندها أوزارها وهى عدم الفتنة فى الدين ولا يكون فى الأرض دين الا لله عز وجل فلما جاء الاذن بالقتال وأصبح المسلمون لهم دولة وقويت شوكتها واستقرت فى المدينة وفرض عليهم القتال فى السنة الثانية بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بارسال السرايا ، ومن تلك السرايا سرية عبد الله ابن جحش الأسدى فكتب النبى صلى الله عليه وسلم له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين فلما سار اليومين وفتح الكتاب فاذا فيه "اذا نظرت فى كتابى فامض حتى تنزل نخله بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم" فلما نظر فيه قال سمعا وطاعة وأخبر أصحابه بما فى الكتاب وقال قد نهانى أن استكره أحدا منكم فمن كان يرغب فى الشهادة فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول

---

(١) سورة البقرة آية (١٩٠ — ١٩٣)

الله صلى الله عليه وسلم فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد حتى نزل بنخلة فمرت عير لقريش فيها عمرو ابن الحضرمي وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولى هشام ابن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم فأشرف للمسلمين عكاشة وكان حلق رأسه فلما رأوهم قالوا عمار لا بأس عليكم وتشاور الصحابة فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقالوا والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فيمتنعن به منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم فقتلوا عمرو بن الحضرمي واستأسروا اثنين من رجال القافلة ، وأتى عبد الله وأصحابه بالعير والأسيرين فقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام) فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا فأسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء فأنزل الله تعالى "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا " (١) .

قال ابن كثير : أي ان كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام واخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم (والفتنة أكبر من القتل) أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه الى الكفر بعد ايمانه فذلك أكبر عند الله من القتل ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧

غير تائبين ولا نازعين . (١) قال ابن اسحاق فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين فكانت هذه أول سرية حصل فيها القتال والأسر والغنيمة حصل عليها المسلمون من أهل الشرك ثم تتابعت المعارك بعد ذلك مع المشركين واليهود فكانت هذه السرية فاتحة خير للمسلمين لما حصل بعدها من النصر العظيم في بدر تلك المعركة التي فرق الله فيها بين الحق والباطل .

غزوة بدر الكبرى

أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بعث عبد الله بن جحش شهر شعبان وفي رمضان من السنة الثانية بلغه أن عيرا لقريش عظيمة تأتي من الشام محملة بالأرزاق وبأنواع التجارة ذاهبة الى مكة يقودها أبوسفيان بن حرب مع رجال لا يزيد عددهم على الثلاثين رجلا أو الأربعين ، ولما كانت قريش قد أخرجت المسلمين من بلادهم تاركين أموالهم وبيوتهم وأولادهم تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه التجارة انتقاما من كفار مكة اذ ليس من العدل أن يتركهم المسلمون يروحون ويغدون بتجارتهم من قرب المدينة وهم قد فعلوا ما فعلوا بالمسلمين فخرج النبي صلى الله عليه وسلم قاصدا بدرا المكان الذي تمر منه هذه القافلة ، ولكن أبا سفيان علم بمقصد المسلمين

---

(١) انظر سيرة النبي لابن هشام ج ٢ ص ٤٣٥ — ٤٣٩ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٥٠ ، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ١٠٧ — ١٠٩

وخروجهم فأرسل الى قريش رسولا يدعوها أن تحمي تجارتها من المسلمين فهبت قريش بخيلها وخيلائها متجهة لحماية التجارة مع أن التجارة قد أفلتت من المسلمين حيث أخذت الساحل هروبا من المسلمين وأرسل أبوسفيان الى قريش يخبرهم بنجاة تجارتهم ولا داعي الى الذهاب الى بدر لكن لما أراد الله عز وجل اظهار الحق وخذلان الباطل ونصر رسوله والمؤمنين بطرت قريش ونفخ الشيطان في رؤوسهم وحلف أبوجهل لتعزف لهم القينات (١) وليشربن الخمور هناك ولتسمعن العرب بخروجهم فتهابهم فكانت هذه المعركة التي أعز الله فيها الاسلام وأهله وأذل فيها الشرك وأهله فقتل من صناديدهم سبعون رجلا وأسر مثلهم وعاد المسلمون بنصر الله يقودون الأسرى من قريش الى المدينة من هذه الغزوة المباركة .

نقض بني قينقاع العهد

أغاض اليهود انتصار المسلمين في بدر وأشعل نار الحقد والحسد في نفوسهم . وصاروا يعملون على ما يكدر صفو ذلك الانتصار العظيم الذي أحرزه المسلمون في بدر فلقد تعرض يهود بني قينقاع لاحدى نساء المسلمين وطلبوا منها أن تسفر عن وجهها فأبت ذلك فعمد أحدهم الى طرف ثوبها وهي لا تدري فعقده الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها وضحك اليهود منها وصاحت المرأة فوثب رجل من المسلمين على ذلك اليهودي فقتله فشدت اليهود على المسلم فقتلوه .

---

(١) القينات جمع قينة وهي الجارية المغنية وتجمع على قيان . انظر النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الأثير جـ٤ ص١٣٠

بهذا الاعتداء تكون هذه القبيلة اليهودية قد نقضت عهدها مع المسلمين لذا جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم في سوق بني قينقاع ثم قال : يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فانكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم قالوا : يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة انا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس (١) فخرج اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه فألح عليه عبد الله بن أبيّ في حقن دمائهم وقال احسن الى مواليّ فجعل يقول وهو ممسك بيده جيب رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا أرسلك حتى تحسن الى مواليّ ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع تحصدهم في غداة واحدة قد منعوني من الأحمر والأسود ؟ فشفّعه فيهم وحقن دماءهم على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروا فيها المسلمين فخرجوا الى نواحي الشام فهلك أكثرهم .

وقعة أحد

أما كفار مكة فظلت نار الحرب معهم مشتعلة فقد حلف أبو سفيان لا يمس رأسه الدهن ولا يقرب النساء حتى يثأروا من محمد لهزيمة بدر فأوقفوا أرباح التجارة التي كان هو قائدها — في دار الندوة — وجمعوا عليها الأموال واستنفروا من حولهم حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل منهم ومن حلفائهم ممن حقد على الاسلام والمسلمين فسار هذا الجيش حتى وصل المدينة وعسكر في أحد فخرج اليهم الرسول وأصحابه المؤمنون وتخلف المنافقون فكانت معركة أحد التي بدأ فيها النصر أول المعركة لولا مخالفة خطة

---

(١) سيرة النبي لابن هشام جـ ٢ ص ٣٦١

الرسول الحربية التى وقعت من بعض فصيلة الرماة فكان ذلك سببا فى تحول المعركة فى صالح العدو حتى أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا ، لكن لم يحقق المشركون ما جاءوا من أجله وهو القضاء على الاسلام وأهله بل بقى المسلمون أقوياء فلقد طاردوا المشركين حتى أوصلوهم حمراء الأسد وعسكروا فيها ثلاثة أيام ثم رجعوا الى المدينة .
وبهذه المطاردة استعاد المسلمون قواهم وهيبتهم ، وعرف أعداؤهم أنهم أقوياء فهابوهم ورحلوا الى ديارهم ولم يجرؤا على الوقوف أمام المسلمين .

وبعد وقعة أحد حاول يهود بنى النضير الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عندما خرج اليهم يستعينهم فى دية العامريين اللذين قتلهما أحد المسلمين خطأ فأجابوه لطلبه وقالوا نعم يا أبا القاسم لكنهم نووا الغدر بالنبى عليه الصلاة والسلام فتشاوروا على أن يذهب أحدهم الى سطح المنزل الذى جلس النبى صلى الله عليه وسلم فى ظله ويلقى عليه صخرة عظيمة فيقتله ويريحنا منه فأوحى الله تعالى الى نبيه يخبره بما دبروا من غدر وذهب الى المدينة ولحق به أصحابه وانكشف غدر الفريق الثانى من اليهود ونقضوا العهد الذى عقده معهم الرسول صلى الله عليه وسلم فحاصرهم فى حصونهم ست ليال وسألوا الرسول أن يكف عن دمائهم ويجليهم من المدينة على أن لهم من أموالهم ماحملت الابل الا السلاح فذهبوا الى خيبر ومنهم من ذهب الى الشام ، وأراح الله من القبيلة الثانية من اليهود ، وطهر المدينة منهم (١) .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ٣ ص ٦٨٣

غـــزوة الاحـــــزاب

وما زالت جبهة الحرب مفتوحة مع المشركين ففى السنة الخامسة جمعت قريش جموعا من القبائل المحالفة لها والمجاورة وحرضتهم على الهجوم على المدينة والقضاء على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى عاصمتهم المدينة .

واصل هذا التخطيط قام به اليهود الذين اجلاهم النبى صلى الله عليه وسلـم عن المدينة فقام جماعة منهم الربيع بن ابى الحقيق وسلام بن مشكم وحيى بن أخطـــب النضريون فذهبوا الى مكة فدعوا قريشا الى ذلك الامر الاثم واستجابت الى دعوتهـــم ورجع اليهود وحرضوا غطفان على ما دعوا اليه قريشا فاجابوهم .

وخرجت قريش حتى وصلت المدينة فصارت موقعة الاحزاب التى خطط لها الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه الكرام خير تخطيط ، وظهرت فيها سياسة الرسول صلى اللـــه عليه وسلم الحربية التى أدهشت قريشا وذلك بحفر الخندق المحيط بشمال المدينة وهى لا عهد لها بهذه الطريقة مما جعلها تقف حائرة امام هذا الخط الدفاعى الذى حصنت به المدينة بمشورة سلمان الفارسى ، واستعمل فيها النبى صلى الله عليه وسلـــم سلاح التخذيل كما فعل ذلك نعيم بن مسعود فأتى النبى مسلما ولم يعلم أحـــــد باسلامه فقال للرسول صلى الله عليه وسلم ما تأمرنى أن أفعل فقال له النبى صلى اللــــه عليه وسلم خذل عنا ما استطعت (١) وكان فطنا فاستطاع تفريق قريش وبقية القبائل عـــن بعض مما دعاهم الى عدم الثقة ببعضهم واتهام كل قبيلة منهم الاخرى بالخذلان لهـــا . وفى هذه الآونة نقض بنو قريظة العهد الذى عقدوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وانضموا الى الأحزاب مما زاد المسلمين قلقا وخوفا حتى بلغت القلوب الحناجر وأحاط المشركون بالمسلمين من كل ناحية من نواحى المدينة .

---

(١) حديث أبى هريرة عند مسلم جـ ١٢ ص ٤٥

ولكن الله تعالى سلط على الأحزاب بعض جنوده المرئية وغير المرئية فأرسل عليهم الرياح التى قلعت خيامهم وكفت قدورهم مع ما فعله نعيم بن مسعود بأمر النبى صلى الله عليه وسلم وشتت الله جموعهم (فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) (١) .

ولما رجع النبى الى المدينة جاءه جبريل فقال أوضعتم السلاح يا محمد انا لم نضع السلاح وان الله يأمرك أن تذهب الى بنى قريظة فحاصرهم النبى (صلعم) مدة فلم يجدوا بدا من النزول على حكم سعد بن معاذ الذى وافق حكمه فيهم حكم الله من فوق سبع سموات قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وبذلك قضى الله على اليهود الباقين بالمدينة وطهرت المدينة من هذا الشر اليهودى ولله الحمد والمنه .

ومن هذا العرض التاريخى السريع للحالة السياسية لسير الدعوة النبوية قبل عمرة الحديبية تبين لنا ما يلى :

١) أن سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل نزول سورة الفتح تتركز على تقوية الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم وتكثير أعداده .

٢) الصفح عن المسئ والصبر على الأذى فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية .

٣) العمل على عدم اتساع جبهة الحرب ضد الدعوة حتى لا يتشتت جهد المسلمين بين الأعداء وذلك بعقد المهادنات مع اليهود والقبائل التى لم تسلم بعد .

---

(١) سورة الاحزاب آية ٢٥

٤) التدرج فى القتال بعد الاذن به والاتجاه الى العدو الأول لتوحيد اللـــــه سبحانه وعدو من اعتنقه وهم كفار مكة •

٥) بتر كل من تسول له نفسه خيانة المسلمين والوقوف فى وجه انتشار الدعـــوة الاسلامية •

٦) مراقبة تحركات الأعداء ومناجزتهم اذا دعت الحاجة •

٧) الدفاع عن حقوق المؤمنين أينما كانت •

٨) مشاورة الصحابة فيما يجد من المواقف وتنفيذ ما فيه المصلحة العامة للمسلميـــن منهـــــا •

الجو الذى نزلت فيه سورة الفتح

فى السنة السادسة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة أراد عليه الصلاة والسلام أن يزور بيت الله الحرام معتمرا فتجهز مع أصحابه للخروج الى مكة واستنفر الاعراب الذين حول المدينة (١) فخرج معه قوم وتخلف آخرون من المنافقين قائلين كيف يذهب محمد ومن معه الى قوم أعداء لهم وقد غزوهم فى عقر دارهم ، وهم موتورون فى كبارهم وأقاربهم ان هم دخلوا عليهم فيستأصلون ولا يرجع منهم أحد .

وسيأتى فى هذه السورة ما يفضح نواياهم ، وما انطوت عليه ضمائرهم من الحقد والكيد للمؤمنين ، ولم يثن النبى صلى الله عليه وسلم عما عزم عليه مقالة هؤلاء المنافقين وتخلفهم ، بل أحرم النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته بالعمرة من ذى الحليفة وساق معه الهدى ، وكان عدد من خرج معه ألفا وأربعمائة كما قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه (٢) . وسيأتى لهذه المسألة زيادة ايضاح فى عدد من خرج والخلاف فى ذلك .

هذا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بشر أصحابه بدخول مكة فاستبشروا وفرحوا كثيرا بهذه البشرى وذلك فى الرؤيا التى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأتى الكلام فى موضعه عند قوله تعالى " لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق" الآية (٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص ٧٧٤

(٢) صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى ج ٧ ص ٤٤٣ ط السلفية

(٣) ٢٧ سورة الفتح

اذا
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك ٠ فخرجوا معهم العوذ المطافيل (١) قد لبسوا جلود النمور (٢) وقد نزلوا بذى طوى (٣) يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قدموها الى كراع الغميم (٤)

وقد روى البخارى رحمه الله قصة صلح الحديبية فروى بسنده عن المسور ابن مخرمة (٥) ومروان بن الحكم (٦) :

---

(١) العوذ بسكون اللام وضم العين المهملة بعدها ذال معجمة يريد النساء والصبيان ، والعوذ فى الأصل جمع عائذ وهى الناقة اذا وضعت وبعدما تضع أياما حتى يقوى ولدها ، النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير ج٣ ص٣١٨ والقاموس المحيط ج ١ ص٣٦٩ ط الثانية الحلبى

(٢) كناية عن شدة الحقد والغضب تشبيها باخلاق النمر وشراسته النهاية ج ٥ص١١٨ ابن الاثير ص١٤٧ والقاموس المحيط ج ٢ ص ١٥٤

(٣) ذى طوى : بضم الطاء وفتح الواو المخففة : موضع عند باب مكة يستحب لمن دخل مكة أن يغتسل به النهاية ج ٣ ص ١٤٧

(٤) السيرة النبوية ج ٣ ص ٧٧٤ ط المدنى سنة ١٣٨٣ هـ والغميم قيل موضع بين مكة والمدينة وسياق القصة يدل على قربه من الحديبية ٠ فتح البارى ج ٥ ص٣٣٥

(٥) المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى أبو عبد الرحمن له ولأبيه صحبة / ٤ التقريب ج ٢ ص٢٤٩ الناشر النمنكانى صاحب المكتبة العلمية بالمدينة

(٦) مروان بن الحكم بن أبى العاص الأموى ولى الخلافة فى آخر سنة أربع وستين لا يثبت له صحبة نفس المصدر ج ٢ ص٢٣٨

يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا ، "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق، قال النبى صلى الله عليه وسلم : ان خالد اذا ابن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى اذا هم بقترة (١) الجيش فانطلق يرهض نذيرا لقريش ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس: حل حل (٢) فألحت (٣) فقالوا خلأت القصواء (٤) خلأت القصواء فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة (٥) يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها ثم زجرها فوثبت (٦) قال : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية (٧) على

---

(١) القترة بفتح القاف والمثناة الغبار الأسود . فتح البارى ج ٥ ص ٣٣٥

(٢) حل حل بفتح المهملة وسكون اللام كلمة تقال للناقة اذا تركت السير نفس المصدر

(٣) فألحت بتشديد المهملة أى تمادت على عدم القيام وهو من الالحاح .

(٤) خلأت القصواء الخلأ بالمعجمة والمد للابل كالحران للخيل والقصواء بفتح القاف بعدها مهملة ومد : اسم ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان طرف اذنها مقطوعا والقصو قطع طرف الاذن يقال بعير أقصى وناقة قصوى . نفس المصدر

(٥) خطة : يعنى طريقة من طرق المسالمة التى يمنع بها سفك الدماء فى الحرم

(٦) وثبت بمعنى قفزت ونهضت ، القاموس ج ١ ص ١٤١ ط الحلبى وأولاده

(٧) الحديبية بالتشديد والتخفيف وروى عن الشافعى أن الصواب التشديد وهى قرية متوسطة ليست بالكبيرة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها وقال الخطابى : سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت فى ذلك الموضع والحديبية بينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، معجم البلدان ياقوت بن عبد الله الحموى ج ٤ ص ٢٢١

ثمد (١) قليل الماء يتبرضه (٢) الناس تبرضا ، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه (٣) وشكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فأنزع سهما من كنانته (٤) ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش (٥) لهم بالري (٦) حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك اذ جاء بديل (٧) بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة (٨) نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة " فقال : اني تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ، ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين

---

(١) الثمد بفتح المثلثة والميم حفرة فيها ماء مثمود أى قليل ويطلق على الماء القليل وقيل ما يظهر شتاء ويختفي صيفا من الماء ، القاموس ج ١ ص ٢٩٠ وفتح الباري ج ٥ ص ٣٣٦

(٢) تبرضه الناس : الأخذ قليلا قليلا والبرض بالسكون اليسير من العطاء . فتح الباري ج ٥ ص ٣٣٧

(٣) نزحوه ، نزح كمنع وضرب نزحا ونزوحا بعد والبئر استقى ماءها حتى ينفد أو يقل كأنزحها ، القاموس ج ٢ ص ٢٦١

(٤) كنانته ، المراد بها الجعبة قال في القاموس وكنانة السهام بالكسر جعبة من جلد لا خشب فيها القاموس ج ٣ – ص ٢٦٦ الحلبي وشركاؤه وفتح الباري ج ٥ ص ٣٣٧

(٥) يجيش : يفور وجاش البحر والقدر وغيرهما يجيش جيشا وجيوشا وجيشانا غلى والعين فاضت ، القاموس ج ٢ ص ٢٧٦ فتح الباري ج ٥ ص ٣٣٧

(٦) الري : بالفتح وتكسر ، روى من الماء واللبن كرضى ريا وريا وروى وتروى وارتوى بمعنى والشجر تنعم كتروى والاسم الري بالكسر ، القاموس ج ٤ – ص ٣٣٨ ط الحلبي

(٧) بديل بن ورقاء بن عمرو بن عبد العزى بن ربيعة الخزاعي يقال : ان قريشا لجأت لداره يوم الفتح من كبار مسلمة الفتح وقيل اسلم قبل ذلك توفى قبل النبي صلى الله عليه وسلم . أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير على بن محمد الجزري ج ١ – ص ٢٠٣ – ٢٠٤

(٨) عيبة الرجل مكان سره وأصلها ما يضع فيه ثيابه . فتح الباري ج ٥ ص ٣٣٧

وان قريشا قد نهكتهم (١) الحرب وأضرت بهم فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فان أظهر فان يشاؤو أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، والا فقد جمّوا (٢) وان هم أبوا فوالذى نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى (٣) ولينفذن الله أمره ، فقال بديل : سأبلغهم ما تقول ، قال : فانطلق حتى أتى قريشا قال : انا جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فان شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء ، وقال ذوو الرأى منهم هات ماسمعته يقول : قال سمعته يقول : كذا وكذا ، فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم فقام عروة بن مسعود فقال : أى قوم ألستم بالوالد ؟ قالوا بلى قال : أولست بالولد ؟ قالوا بلى : قال : فهل تتهموني ؟ قالوا لا : قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ؟ فلما بلحوا (٤) على جئتكم بأهلي وولدى ومن أطاعني قالوا بلى قال : فان هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آتيه قالوا ائته فأتاه فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك : أى محمد أرأيت ان استأصلت أمر قومك ؟ هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وان تكن

---

(١) نهكتهم الحرب بمعنى أضنتهم وهزلتهم ، ومنه قولهم نهكته الحمى القاموس ج ٣ ص ٣٣٢ ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر

(٢) جمّوا ، استراحوا وكثروا ، النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير تحقيق طاهر احمد الزاوى ج ١ ، ص ٣٠١ ط الحلبى

(٣) السالفة ، صفحة العنق وهما سالفتان من جانبيه وكنى بانفرادها عن الموت لانها لا تنفرد عما يليها الا بالموت وقيل أراد حتى يفرق بين رأسي وجسدى النهاية ، نفس المصدر ج ٢ ص ٣٩٠ ط الحلبى

(٤) بلحوا أعيوا وأبوا عن الخروج ، القاموس المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٤ والنهاية المصدر السابق ج ١ ص ١٥١

الاخرى فانى والله لأرى وجوها وانى لأرى أشوابا (١) من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر: امصص بظر (٣) اللات أنحن نفرّ عنه وندعه ؟ فقال: من ذا ؟ قالوا أبو بكر قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك قال: وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر (٤) فكلما أهوى عروة بيده الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عروة رأسه فقال من هذا ؟ قال: المغيرة بن شعبة فقال: أى غدر (٥) ألست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) أشوابا أخلاطا من الناس أو هى الخلط فقط وعليه فالعبارة الأولى أخص القاموس ج ١ — ص ٩٣ ، فتح البارى ج ٥ ، ص ٣٤٠

(٢) خليقا : حريا بهم ، وحقيقا ، فتح البارى نفس المصدر ج ٥ ، ص ٣٤٠ القاموس ج ٣ ص ٢٣٧

(٣) بظر اللات ، بفتح الباء الهنة التى تقطعها الخافضة من فرج المرأة عند الختان ، النهاية المصدر السابق ج ١ ص ١٣٨ القاموس المصدر السابق ج ١ — ص ٣٨٨

(٤) المغفر ، كمنبر وبهاء زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع بها المتسلح ، القاموس ج ٢ ص ١٠٧ ، والنهاية ج ٣ ص ٣٧٤

(٥) غدر : كناية عن عدم الوفاء يقال للذكر يا غدر وللمرأة يا غدارة اهـ القاموس نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٣ ، والنهاية المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٤

أما الاسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شئ ثم ان عروة جعل يرمق(١) أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة الا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، واذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون اليه النظر تعظيما له ، فرجع عروة الى أصحابه فقال: أي قومي والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله ان (٢) رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدا والله ان يتنخم نخامة الا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم ابتدروا أمره ، واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون (٣) اليه النظر تعظيما له ، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل (٤) من بني كنانة دعوني آتيه فقالوا ائته فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثت له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فلما رجع الى أصحابه قال: رأيت البدن (٥) قد قلدت (٦) وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت فقام رجل منهم يقال

---

(١) يرمق، ينظر اليه شزرا نظر العداوة نفس المصدر ج ٢ ص ٢٦٤ ، القاموس المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٦

(٢) ان نافيه والمعنى والله ما رأيت

(٣) يحدون اليه النظر ، أي ما ينظرون اليه بشدة بل انما ينظرون اليه مع استحياء وتوقير له صلى الله عليه وسلم

(٤) والرجل المذكور هو الحليس بن علقمة فتح الباري ج ٥ ص ٣٤٢

(٥) البدن جمع بدنة الناقة

(٦) قلدت جعلت لها قلائد اشعارا بأنها مقدمة لأهل الحرم

له مكرز بن حفص فقال : دعونى آتيه فقالوا ائتيه فلما أشرف (١) عليهم قال النبى صلى الله عليه وسلم هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه اذ جاء سهيل بن عمرو قال : معمر فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى صلى الله عليه وسلم قد سهل لكم من أمركم ، قال معمر : قال الزهرى : فى حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات : اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الكاتب فقال النبى صلى الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هى ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم والله انى لرسول الله وان كذبتمونى اكتب محمد بن عبد الله قال الزهرى وذلك لقوله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة (٢) ولكن ذلك من العام المقبل فكتب ، فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل — وان كان على دينك — الا رددته الينا قال المسلمون : سبحان الله كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلما ؟ فبينما هم كذلك اذ دخل أبو جندل بن

---

(١) أشرف ، قارب

(٢) ضغطة ، كرها وشدة وعصرا وقهرا ، القاموس ج ٢ ص ٣٨٥ ، النهاية المصدر السابق ج ٣ ص ٩

عمرو يرسف (١) في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده الي فقال النبي صلى الله عليه وسلم انا لم نقض الكتاب بعدك ،قال فوالله اذن لم أصالحك على شيء أبدا ٠فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأجزه لي قال ما أنا بمجيزه لك قال : بلى فافعل قال : ما أنا بفاعل قال مكرز بن حفص : بل قد أجزناه لك قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد الى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا ترون ما قد لقيت وكان قد عذب عذابا شديدا في الله قال ،فقال عمر بن الخطاب فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت ألست نبي الله حقا ؟ قال بلى ،قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى : قلت : فلم نعطي الدنية (٢) في ديننا اذن قال : اني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ، قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به قال : بلى ،فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال : قلت لا قال : فانك آتيه ومطوف به قال : فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا بنبي الله حقا ؟ قال : بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى قلت فلم نعطي الدنية في ديننا اذن ،قال أيها الرجل انه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه (٣) فوالله انه على الحق قلت : أليس كان يحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به ؟ قال بلى : أفأخبرك أنك تأتيه العام قلت : لا فقال : فانك آتيه ومطوف به ٠

---

(١) يرسف مشى في القيد متحاملا ومنه يقال يرسف في القيد ،نفس المصدر ج٢ ص٢٢٢ القاموس المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٨

(٢) الدنية ،المراد بها هنا أنهم يردون من جاء من المشركين مسلما اليهم ،وأن المشركين لا يردون من جاءهم من المسلمين

(٣) غرزه ،المراد به الركاب ان كان من جلد أو خشب وقيل هو الكور وهو كناية عن التمسك بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم ، النهاية ج ٣ ص ٣٩٩

قال الزهرى : قال عمر : فعملت لذلك أعمالا ، قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس فقالت : أم سلمة : يا نبى الله : أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما . ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله (الممتحنة) (١) يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن ... حتى بلغ بعصم الكوافر فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك فتزوج احداهما معاوية بن أبى سفيان ، والاخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة فجاءه أبو بصير(٢) ... الخ الحديث وسيأتى لقصة أبى بصير مزيد من الايضاح ان شاء الله عند الكلام على أول السورة .

---

(١) الآية من سورة الممتحنة رقم ٩

(٢) وملخص قصة أبى بصير أنه رجل من قريش أسلم ولحق بالنبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فطلبوا ارجاعه اليهم حيث أرسلوا اثنين منهم لينظروا هل يفى النبى صلى الله عليه وسلم بما عاهدهم به من رده لهم كل من جاء منهم مسلما ، فلما جاء الرسولان أرسله معهما فذهبا به فلما كانا على مقربة من المدينة بذى الحليفية نزلا ونزل أبو بصير معهما من أجل الأكل والشراب فنظر أبو بصير الى سيف أحدهما وقال : والله انى لأرى سيفك هذا جيدا : فاستله الآخر وقال : أجل والله انه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير أرنى أنظر اليه فأمكنه منه فأخذه أبو بصير وضربه به حتى قتله ، وفر أحدهما هاربا مذعورا الى المدينة ودخل على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : آن الرجل قد رأى ذعرا فقال الرجل انه قتل صاحبى ثم جاء أبو بصير وقال يا رسول الله قد وفيت بعهدك ونجانى الله من القتل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ،

ذكر بعض من أوفده النبي صلى الله عليه وسلم الى قريش في صلح الحديبية

كانت عادة النبي صلى الله عليه وسلم عدم المباغته وعدم الغدر وعدم المفاجأة لمن يريدهم ، ولهذا لما جاء الى الحديبية وهو يقصد البيت لزيارته أرسل أولا أشخاصا من قبله أوفدهم على قريش للتفاهم معها ، فكان أول من أرسل صلى الله عليه وسلم — بعد أن انتهى وفود قريش — خراش بن أمية الخزاعي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم على جمله لافهام قريش بما جاء به وابلاغهم وجهة نظر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر فطردوه وعقروا جمل (١) النبي صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله لولا أن منعه الأحابيش (٢) فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم بعد ذلك أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه الى مكة فرحب به أهلها وعرضوا عليه الطواف بالبيت فامتنع أن يطوف بالبيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطف بعد .

— ثم خرج أبو بصير الى الساحل في مكان يقال له سيف البحر ثم جاءه أبو جندل وكل من سمع به من المسلمين في مكة يخرج اليه وصاروا قوة ضاربة أرهبت قريشا خصوصا من يخرج منهم مسافرا حتى ناشدوا الرسول الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي اليهم

(١) قال ابن اسحاق في سيرته : ان هذا الجمل يسمى الثعلب ج ٣ ص ٧٧٩

(٢) الأحابيش ، المراد بهم القبائل الذين تحالفوا أنهم ليد على غيرهم ما سجا ليل ووضح نهار ، وقد اشتق لهم هذا الاسم من أنهم تحالفوا تحت جبل بمكة بأسفلها يقال له حبشي بالضم ، وقيل هم أحبار من القارة تحالفوا على محاربة قريش ، القاموس المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٧ ، النهاية لابن الأثير المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٠

ثم ان عثمان عندما أرسله النبى صلى الله عليه وسلم الى مكة أبطأ وتأخر ، حتى أشيع أن قريشا قتلوه ، فعندئذ طلب النبى صلى الله عليه وسلم البيعة لقتال قريش فبايعه الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم على الموت وبايع هو صلى الله عليه وسلم بيده الشريفه عن عثمان رضى الله عنه ، وسيأتى مزيد تفصيل لهذا عند الكلام على البيعة فى محله من السورة .

ثم ان عثمان رضى الله عنه وأرضاه رجع بحمد الله سالما لم يصب بأذى . ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم قال قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل (١) ، وجرى الصلح بينهم على ما سلف فى سياق البخارى للقصة .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ، ص ٧٨١

الصيغة النهائية لوثيقة الصلح وذكر الشروط والشهود على الصلـــح

بعد أن اختفت معارضة قريش للنبي صلى الله عليه وسلم الحادة وبرزت سياسته وارتضا ها قريش اتفق الطرفان على كتابة وثيقة ، تكون بين كل طرف منها نسخـة ، مكتوب فيها ما حصلت عليه الاتفاقية بشهادة الشهود وتوقيع كل طرف . واليك أيها القارئ الكريم نص الوثيقة :

(باسمك اللهم هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا اسلال (١) ولا اغلال (٢) ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل ، وأنه من أتى منهم محمدا بغير اذن وليّه رده اليهم وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لم ترده ، وأن محمدا يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابل فى أصحابه فيقيم ثلاثا لا يدخل علينا بسلاح الاسلاح المسافر السيوف فى القرب (٤)

---

(١) الاسلال السرقة الخفية ، القاموس ج ٣ ص ٤٠٨ ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر

(٢) الاغلال الخيانة ، القاموس ج ٢ ص ٢٦

(٣) عيبة ، المراد بها موضع السر وقد تقدم شرحها

(٤) السيرة لابن هشام ج ٣ ص ٧٨٢ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ ط دار صادر

الشهود الذين وقّعوا على الوثيقة

١ — أبو بكر الصديق
٢ — عمر بن الخطاب
٣ — عثمان بن عفان
٤ — عبد الرحمن بن عوف
٥ — سعد بن أبي وقاص
٦ — أبو عبيدة بن الجراح
٧ — محمد بن مسلمة الأنصاري

هؤلاء من المسلمين ثم وقع عليها اثنان من المشركين وهما :

١ — حويطب بن عبد العزى
٢ — مكرز بن حفص بن الاحيف

(تعليق عام على قصة الحديبية)

لا شك أن صلح الحديبية هذا كان صلحا مباركا وكان فتحا عظيما على المسلمين ، وقد تجلت فيه سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم العظمى مع المشركين من جانب ، كما ظهرت فيه معاملته الكريمة لأصحابه وتواضعه لهم .
أما جانب المشركين فانه صلى الله عليه وسلم عاملهم بسياسة حكيمة لا تعرف التراجع عن المبدأ الأسمى ، والغاية المنشودة التى هى الهدف الذى جاء من أجله ، وذلك أنه من أول أمره أخبرهم أنه انما جاء معظما لهذا البيت لا يريد قتالا ولا حربا ، ولكنه مع ذلك ليس بالمستكن ولا بالمسالم لمن لا يسالمه ، ثم حاولوا معه فى الرجوع عن هذا المبدأ فلم يزدد الا اصرارا على مبدئه ، ولكن استجاب لهم فى أنهم ان دعوه الى خطة كائنة ما تكون فيها تعظيم حرمات الله عز وجل وصون البيت الحرام وليس عليه فيها تنقيص ولا غضاضة أجابهم لها .

ولهذا بعد مداولاتهم ومشاوراتهم أجمع رأيهم على أن يعقدوا معه صلحا مبرما مكتوبا بينهم وبينه ، لا يمكن لأحد الفريقين نقضه ، واذا نقضه يكون عرضة لتحمل ما ينتج عنه فكانت سياسته فى هنا المضمار أعلى شأنا وأسمى مظهرا من قريش كما هو واضح .

أما جانب أصحابه فانهم فى بادئ الأمر عندما استجاب لهذا الصلح الذى كان فيه الصد عن البيت ظهرت منهم تساؤلات لقصد استيضاح واستكشاف الموقف لا لشك منهم رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم .

ثم انه صلى الله عليه وسلم بسياسته وخلقه الكريم رد على هذه التساؤلات وأصحابها ردودا واضحة أثلجت صدورهم وجعلتهم يقتنعون بما شرح الله صدر النبى صلى الله عليه وسلم له ٠

ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم علمنا فى هذه القضية دروسا عظيمة من ذلك أن الانسان القائد اذا أراد أن يعمل بمبدئه الذى يدعو اليه لابد أن يكون هو الأول المنفذ له ، ولهذا نبينا صلى الله عليه وسلم لما أمر الصحابة رضوان الله عليهم بالحلق ونحر الهدى ، وجد منهم الاحجام عن أمره ليس اباء منهم ولكن من أجل المفاجأة بهذا الأمر الذى لم يكونوا مستعدين له ، فلما أخبر أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها بما حصل من بعض الصحابة أرشدته الى الخطة المثلى ، وهو أنه يبدأ صلى الله عليه وسلم هو بالحلق والنحر اذا أراد من الصحابة أن ينفذوا ما أمرهم به ٠
فما ان بدأ بالحلق وأمر بالنحر حتى تسارع الناس كل فى حلق رأسه ونحر هديه حتى خشى عليهم من المضاربة من أجل الاسراع وشدة الزحام ٠ ثم انه صلى الله عليه وسلم بعد هذا رجع الى المدينة ظافرا منتصرا ، ولكن ما حصل من بعض الصحابة من التساؤلات والاحجام فى عدم المسارعة للاستيضاح فى هذا الموقف وما وجدوه من حرج فى رجوعهم بدون عمره كل هذا الذى حصل من الصحابة كان عاملا أساسيا لنزول شئ من القرآن يطمئن الصحابة ويزيل عنهم حالتهم النفسية التى علقت بهم أول الأمر ، ويؤكد لهم أن الذى فعله الرسول صلى الله عليه وسلم هو الخير وهو السياسة الملائمة للموقف ، وأنه هو الفتح المبين وأن عاقبته ستكون محمودة وسيجنون ثمارها أولا بأول ، فاشرأبت النفوس لذلك فأنزل الله عز وجل سورة الفتح لترسم لنا الصورة الوضيئة التى تمثل لنا جانبا من سياسة النبى صلى الله عليه وسلم فى حربه ومهادنته مع أعدائه ولتقرر تأييده على هذه المصالحة ولتزيل ما وقع فى نفوس المؤمنين من حزن وكآبة وهموم بسبب صدهم عن البيت ورجوعهم بدون زيارته فى تلك السنة ، فالى السورة الكريمة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

" الفتح المبين "

قال الله تعالى (انا فتحنا لك فتحا مبينا (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما (٢) وينصرك الله نصرا عزيزا (٣) هو الذي أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفّر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) (٥) .

قوله تعالى (انا فتحنا لك فتحا مبينا) الفتح الظفر بالبلد عنوة (٦) أو صلحا بحرب أو بغير حرب ، لأنه مغلق ما لم يظفر به ، فاذا ظفر به وحصل فى اليد فقد فتح (٧) وقال ابن فارس : الفاء والتاء والحاء ـ يعنى الفتح ـ أصل صحيح يدل على خلاف الاغلاق (٨) .

" مبينا " أى بينا ظاهرا لكل شاهد وسامع .

---

(١) الآية رقم ١ من سورة الفتح

(٢) الآية رقم ٢ من سورة الفتح

(٣) الآية رقم ٣ من سورة الفتح

(٤) الآية رقم ٤ من سورة الفتح

(٥) الآية رقم ٥ من سورة الفتح

(٦) قهرا

(٧) الكشاف جار الله الزمخشرى ج٣ ، ص ٥٤١ ط الأخيرة ١٣٨٥ هـ

(٨) معجم مقاييس اللغة احمد بن فارس ج ٤ ص ٤٦٩ ط الثانية تحقيق عبدالسلام محمد هارون

أقوال العلماء فى المراد بالفتح فى هذه الآية

اختلفت أقوال العلماء فى المراد بالفتح المبين فى هذه الآية ، واليك الأقوال مبينة مع ذكر ما أراه راجحا منها بالدليل :

القول الأول :

وهو الراجح عندى أن المراد بالفتح هنا هو ما حصل من الصلح بين المسلمين والمشركين فى الحديبية ، وهذا القول هو الذى ذهب اليه أكثر العلماء من المفسرين والمحدثين وأصحاب السير والمؤرخين ، وهو الذى يناسب ما ذكر فى وقت ومكان نزول السورة الكريمة ، وقد جاءت الأحاديث والآثار مصرحة بذلك ، منها ما أخرجه الشيخان بسنديهما عن سهل بن حنيف (١) أنه قال يوم صفين : أيها الناس اتهموا أنفسكم لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين فجاء عمر ابن الخطاب فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على باطل ؟ قال : بلى قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى قال ففيم نعطى الدنية (٢) فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم قال يا بن الخطاب انى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا قال : فانطلق عمر فلم يصبر متغيظا (٣) فأتى أبا بكر

---

(١) سهل بن حنيف الأنصارى الأوسى صحابى من أهل بيعة الشجرة استخلفه على على البصرة ومات فى خلافته (ع) التقريب لابن حجر جـ ١ ص ٣٣٤

(٢) بفتح الدال وكسر النون بعدها ياء وهاء ، الخصلة المذمومة ، النهاية فى غريب الحديث والأثر المصدر السابق جـ٢ ص ١٣٧

(٣) قال النووى : رحمه الله — تعالى : قال العلماء : لم يكن سؤال عمر رضى الله

فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق؟ وهم على باطل قال : بلى قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى قال فعلام نعطى الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم فقال : يا بن الخطاب انه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا قال : فنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح فأرسل الى عمر فأقرأه اياه فقال يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : (نعم) فطابت نفسه ورجع واللفظ لمسلم . (١)

قلت : وهذا مقام محمود من مقامات أمير المؤمنين عمر التي يريد فيها دائما الغلظة والشدة على الكفار فانه كان رضى الله عنه معروفا بذلك ولهذا روى عنه أنه قال : ما ترك لى الحق صديقا . وليس ذلك الموقف من عمر موقف اباء عن امتثال أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل هو كموقفه من أسارى بدر فان عمر لما استشار الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة يومئذ أشار عمر بالقتل هو وعبد الله بن رواحه ، وله مواقف كثيرة ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لو نزل العذاب ما نجا منه الا عمر أو كما قال .

وأخرج البخارى — رحمه الله — بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه (انا فتحنا

= عنه وكلامه المذكور شكا بل طلبا لكشف ما خفى عليه وحثا على اذلال الكفار وظهور الاسلام كما عرف من خلقه رضى الله تعالى عنه وقوته فى نصرة الدين واذلال المبطلين ، وأما جواب أبى بكر رضى الله عنه لعمر بمثل جواب النبى صلى الله عليه وسلم فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله وبارع علمه وزيادة عرفانه ورسوخه فى كل ذلك رضى الله عنه ، شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٢ ص ١٤١ ط المصرية

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٩ ط عيسى البابى الحلبى ، مصر القاهرة

لك فتحا مبينا) قال: الحديبية . (١)

وروى عن البراء رضى الله عنه قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها (٢) ثم دعا باناء فتوضأ ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم انها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا (٣) .

وأخرج مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال: لما نزلت (انا فتحنا لك فتحا مبينا) ليغفر لك الله الى قوله (فوزا عظيما) مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحر الهدى بالحديبية قال: لقد أنزلت علىّ آية هى أحب الى من الدنيا جميعا" (٤)

وروى احمد بسنده عن مجمع (٥) قال: شهدنا الحديبية ولما انصرفنا عنها اذ الناس ينفرون (٦) الأباعر فقال الناس: بعضهم لبعض ما للناس قالوا: أوحى الى رسول الله

---

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ١٦٠ ط الشعب ١٣٧٨
(٢) شفيرها أصله ناصية الشئ والمراد هنا طرف البئر القاموس ج ٢ ص ٦٣
(٣) صحيح البخارى المصدر السابق ج ٥ ص ١٥١
(٤) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٠
(٥) بميم مضمومة بعدها جيم مفتوحة بعدها ميم مشددة مكسورة وعين مهملة ابن جارية الأنصارى صحابى جليل رضى الله عنه وأرضاه
(٦) يزجرونها ويحثونها على السير والاباعر جمع بعير

صلى الله عليه وسلم فخرجنا مع الناس نرجف حتى وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم (٢) واجتمع الناس اليه فقرأ عليهم (انا فتحنا لك فتحا مبينا) فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أى رسول الله أفتح هو؟ قال: اى والذى نفس محمد بيده انه لفتح ... الحديث(٣) .

فهذا سياق صريح فى المراد بالفتح فى هذه الآية ، وليس بعد بيان النبى صلى الله عليه وسلم بيان وهو الذى نزل عليه القرآن وبينه للناس أتم بيان قال تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون" (٤)

وروى ابن كثير (٥) عن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح الا يوم الحديبية .

وأخرج عن ابن مسعود رضى الله عنه انكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . الى غير ذلك من النصوص الدالة على ما ذكرنا ، وبهذه النصوص الواضحة الصريحة يتبين لنا أن المراد بالفتح المبين المذكور فى هذه السورة أنه صلح الحديبية فقد أقسم الرسول صلى الله عليه وسلم عليه كما مر فى

---

(١) الاجاف الاسراع فى السير وقد أوجف دابته يوجفها اجافا اذا حثها ، والوجف أصله ضرب من سير الخيل ، القاموس ج ٣ ص ٢١٠ ، النهاية لابن الأثير ج ٥ ص ١٥٧

(٢) الغميم موضع بين مكة والمدينة ، وبين رابغ والجحفة ، معجم البلدان ياقوت الحموى ج ٤ ، ص ٢٢١ ط بيروت

(٣) مسند الامام احمد مع ترتيبه للساعاتى ج ٢١ ص ١٢٦ ط الأولى ١٣٧٤هـ

(٤) الآية من سورة النحل رقم ٤٤ ،

(٥) ج ٤ ص ١٨٢ ط بيروت ١٣٨٨ هـ

حديث مجمع ، وذكر ذلك الصحابة وهم أعرف بالمراد من معاني كتاب الله كيف ؟ وقد شاهدوا التنزيل على الرسول صلى الله عليه وسلم وحضروا معه المشاهد كلها واستمعوا منه ما يحدث به ولذلك حدثوا به الناس من بعده .

ومن ذلك ما فهموه من هذه الآية أن المراد بالفتح هو صلح الحديبية ولهذا جاء التصريح بذلك كما في حديث أنس والبراء وجابر وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين .

القول الثاني :

أن المراد فتح مكة وهو مردود بما ذكرنا وبما ذكر في سبب نزول السورة . والمعروف عند علماء التفسير وأصوله أن معرفة أسباب النزول معينة على فهم المراد من الآيات ، فقد روى البخاري والنسائي والترمذي واحمد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضي الله عنه كان يسير مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر (١) فسأله عن شئ ثلاث مرات فلم يجبه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عمر : ثكلت أم عمر نزرت (٢) رسول الله ثلاث مرات كل ذلك فلم يجبك قال عمر : فحركت بعيري

---

(١) قال ابن حجر : وقد جاء في رواية الطبراني عن ابن مسعود أن السفر المذكور هو عمرة الحديبية ، فتح الباري جـ ٨ ، ٥٨٣ ط السلفية

(٢) أي ألححت عليه في المسألة الحاحا ، ابن الاثير في النهاية جـ ٥ ص ٤٠

ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ القرآن فما نشبت (١) أن سمعت صارخا يصرخ بي فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال لقد نزلت علي الليلة سورة لهي أحب اليّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ انا فتحنا لك فتحا مبينا . (٢)

وذكر السيوطي بسنده عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها الى آخرها (٣) . فهذا مع ما سبق من الأحاديث يبين أن المراد بالفتح هو ما ذكره الجمهور من أنه صلح الحديبية ، لأن نزول الصورة كان بعد الانصراف من الحديبية فيكون القرآن أخبر عن شئ قد مضى وتحدث عما حصل بعد انصراف الرسول صلى الله عليه وسلم من الحديبية فان قيل : المراد فتح مكة ، وجئ به على لفظ الماضي لتحقق الوقوع فالجواب أن ما لا يحتاج الى تأويل وصرف عن الظاهر أولى مما يحتاج الى ذلك ، وما وقع فتح مكة الا بعد الحديبية بسنتين ، وقد ذكر الله فتح مكة في سورة النصر التي نزلت بعده قال تعالى (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا " (٤) .

---

(١) لم يلبث وأصله أنه لم يتعلق بسواه ، النهاية لابن الاثير ج ٥ ص ٥٢
القاموس ج ١ ص ١٣٦

(٢) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٦٨

(٣) في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج ٦ ص ٦٨ ط بيروت الناشر محمد امين

(٤) سورة النصر

فالمقصود هنا فتح مكة باتفاق ذكر ذلك ابن حجر (١) .

القول الثالث :

من الأقوال التى ذكرت فى الفتح أن المراد فتح فارس والروم . وهذا يرده أنه متأخر عن نزول السورة وقد نزل هذا الخبر بالفتح على الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذلك .

والرد عليه كالرد على الذى قبله ، والسورة على وجه العموم تعالج ماحصل للمسلمين فى تلك العمرة التى صدهم المشركون فيها عن الوصول الى الكعبة المشرفة ورجعوا بدون أن يحققوا المقصود الذى جاءوا من أجله فوجدوا فى أنفسهم حرجا وضيقا لذلك ، فنزلت هذه السورة الكريمة تزيل ما اختلج فى أنفسهم ، وتخبرهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤيد من عند الله عز وجل ، وأنه يصدع بأمر الله وأن الخطة التى سلكها مع المشركين بعقد الصلح هى فتح مبين ، فأين فتح الروم وفارس من هذا ؟

القول الرابع :

هو أن الفتح ماحصل من ظهور الاسلام بالحجة والبرهان والغلبة على

---

(١) فتح البارى ج ٧ ص ٤٤٢

على الأعداء . وهذا القول والذى قبله من الأقوال لا يزيد على أنه من نتائج هذا الصلح المبارك الذى سماه الله فتحا مبينا لا أنها هى المرادة نفسها ، وسنذكر بعض نتائج هذا الصلح قريبا ان شاء الله تعالى التى تضمنت هذه الأقوال، ودخلت فيها دخولا واضحا .

كيف سمى الصلح فتحا

والصلح قد يسمى فتحا قال الفراء : والفتح قد يكون صلحا ، وسمى الصلح فتحا لاشتراكهما فى الظهور والغلبة على المشركين فانه كما قال الكلبى: ما سألوا الصلح الا بعد أن ظهر المسلمون عليهم (١) ، فقد ظهرت غلبة المسلمين عليهم فى مواطن كثيرة منها بدر ، والاحزاب ، فالمسلمون ظاهرون دائما على المشركين ، وكان ظهور المسلمين عليهم فى هذه العمرة بالسياسة الحكمية والمسالمة العظيمة ، فقد تجلى فى هذه العمرة عفو الرسول صلى الله عليه وسلم وصفحه عن الأعداء ، ولهذا كان جماعة من المشركين قد تسللوا الى المعسكر الاسلامى أثناء اقامتهم بالحديبية أثناء المفاوضة مع المشركين لينالوا منه غرة ، ولكن وجدوا المسلمين الذين يحرسون الجيش على يقظة وحزم عظيمين ، فأسر الحراس جميع هؤلاء المتسللين وعددهم أربعون رجلا وقيل ثمانون وكانوا قد رموا معسكر

---

(١) روح المعانى للألوسى ج ٢٦ ص ٨٤ ط احياء التراث العربى المنيرية بيروت

المسلمين بالنبل والحجارة ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عفا عنهم جميعا (١) فهذا لا شك أنه ظهور من المسلمين على المشركين ، فلو أراد النبي صلى الله عليه وسلم قتلهم لكان ذلك سائغا له لكونهم بيده ، ولكن تركهم ليبين لقريش مقصده الذى جاء محرما من أجله ، قال ابن عبد البر - رحمه الله - فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين يسمون العتقاء واليهم ينسب العتيقون فيما يزعمون ومنهم معاوية وأبوه - رضى الله عنهما - فيما ذكروا . (٢)

وسنبين ان شاء الله تعالى عند الكلام على سبب البيعة أنهم ما سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم الصلح الا بعد أن سمعوا أنه بايع الصحابة على الحرب فهم الذين بدأوا بطلب الصلح وأبدوا رغبتهم فيه ، فالصلح اذن فتح باعتبار النتائج العظيمة التى ترتبت عليه لصالح المسلمين فيما بعد ، واليك بعض النتائج لهذا الفتح المبين

---

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام ج ٣ ص ٧٧٩ ط المدنى ١٣٨٣هـ

(٢) الدرر فى اختصار المغازى والسير ج ١ ص ٢٠٦

النتائج السياسية لهذا الصلح

١ - اعترفت قريش بقوة المسلمين وأنهم دولة مساوية لدولتهم فأصبحوا أهلا لأن تعقد معهم المعاهدات ، وتجرى معهم المفاوضات ، بعد أن كانت قريش تضطهدهم بمكة وتطاردهم بالمدينة محاولة بذلك القضاء عليهم ، وتعتبرهم أفرادا عصاة شقوا عصا الطاعة عليها ، فكان المسلمون بعد هذا الصلح ندّا مساويا لقريش تخاف بطش هذا الند وتسالمه .

٢ - انفتح المجال بعد هذا الصلح أمام القبائل للدخول في الاسلام حيث قضى على زعامة قريش التي كانت تستغلها في اجتذاب القبائل الى حرب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن قبل ذلك تطمئن الى محالفة المسلمين ، لمكانة قريش وقوتها ، وحراستها للكعبة ، فكثر حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة بعد الصلح ، كما حصل من خزاعة ، وهذا النوع من السياسة هو ما يسمى في العرف الحاضر " بالانفتاح السياسي " .

٣ - استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هذا الصلح أن يوجه ضربته القاضية الى ألد الخصوم ، وهم اليهود الذين كانوا يتحالفون مع قريش على حربه ، ويحرض بعضهم بعضا عليه كما حصل في غزوة الأحزاب ، فكسر شوكتهم

ووأد (١) مكرهم وخداعهم ، وذلك بما حصل لهم في غزوة خيبر . وسنشير الى ذلك عند قوله تعالى (وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها "ان شاء الله .

٤ — كان صلح الحديبية وسيلة الى تبليغ الاسلام للناس كافة ، والنبى صلى الله عليه وسلم مأمور بذلك . قال تعالى : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢))

فبعد هذا الصلح وجد الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة صالحة لتبليغ الدين الاسلامى الى الناس ، فقد كاتب الملوك والأمراء يدعوهم الى الدخول في دين الاسلام منهم هرقل عظيم الروم الذى كاد أن يسلم واعترف بأن النبى صلى الله عليه وسلم مرسل من قبل الله ، وأنه سيظهر أمره وسيستولى على ملكه ، وما وطئت قدماه ، وذلك عندما أخبره أبوسفيان عن صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه غلب عليه حب ملكه وقومه لما نفروا من عنده كالوحوش المستنفرة عندما لمسوا منه اصغاء ، الكامل لرسل النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن فى وسعه الا أن يتحيل عليهم حيث قال : انما أردت اختباركم .

ومن جملة من دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، المقوقس عظيم مصر الذى احترم كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وأرسل اليه بجاريتين هدية احداهما

---

(١) بمعنى دفنه قال تعالى فى سورة التكوير واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت . الآية رقم ٨

(٢) سورة سبأ الآية رقم ٢٨

مارية القبطية التي تسرى بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وولدت له ابراهيم ، فرد المقوقس ردا جميلا الا أنه لم يسلم ، قال صاحب فاس : فى نظمه (١) فمزق الكتاب مزقا ∴ وحاطب الى المقوقس ارتقى ∴ فقارب الاسلام حتى أهدى ∴ جارتين دلدلا وعبدا ∴

ومنهم من مزق كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وهو ملك فارس كسرى **ابرويز** ، ودعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم لمّا أخبر أنه مزق كتابه فقال : مزق الله ملكه ، وكان كسرى قد أرسل الى واليه باليمن أن يرسل الى النبى صلى الله عليه وسلم من يدبر له القتل ، فلما قدم رسوله على النبى صلى الله عليه وسلم قال له : ان ربى قتل ربك ، وكان ابن كسرى الملقب شبرويه قد ثار عليه وقتله وتولى ملكه ، فصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به .

ومنهم النجاشى ملك الحبشة أرسل له فأكرم رسله وأسلم على الصحيح لأن النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك صلى عليه صلاة الغائب ولا يصلى رسول الله على غير مسلم وكان بعض الفقهاء يستدل بصلاته صلى الله عليه وسلم على النجاشى هذه فى أن الصلاة على الغائب سنة . قال فى قرة الابصار (٢) :

---

(١) المسمى قرة الابصار فى سيرة المشفع المختار

(٢) للعالم الفاسى ناظم سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

الى النجاشى النبى أرسلا ∴ عمرا فبجل الكتاب وتلا
فمات مسلما وصلى المصطفى ∴ عليه مع أصحابه أولى الصفا
ودحية الى هرقل أرسلا ∴ فشح ثم ابن حذافة الى
كسرى فمزق الكتاب مزقا ∴ وحاطب الى المقوقس ارتقا
فقارب الاسلام حتى أهدى ∴ جاريتين دلدلا (١) وعبدا

وممن أسلم من الأمراء الذين راسلهم أمير البحرين فأقره النبى صلى الله عليه وسلم واليا على البحرين من قبله ٠

وكانت نتيجة هذه المراسلات والكتب أن دخل فى الاسلام خلق كثير ممن أراد الله لهم الهداية من العرب والعجم ، وسمع بالاسلام من لم يصل اليه خبره قبل ذلك ٠ واكتسب المسلمون بهذه الهدنة مكاسب عظيمة ، فكثر عددهم وقويت شوكتهم وقل أعداؤهم ، وانتشرت دعوة الحق فى أقطار الأرض ، وتوسعت دائرة الاسلام وعلم به من لم يعرف عنه شيئا ، أو عرف عنه معلومات شوّهها المغرضون الذين انطوت قلوبهم على الحقد للاسلام وأهله ، فاتضح لديهم صلاحيته لقيادة البشرية الى دار السعادة فى الدنيا والآخرة ٠

٥ — ومن نتائج هذا الصلح : أن الشروط القاسية التى اشترطها الكفار على المسلمين ، وكان المسلمون لا يرونها أول الأمر مستساغة الا أن النبى صلى الله عليه وسلم ، بما أعطى من المواهب والقدرات العقلية استطاع أن يقنع

---

(١) دلدلا : هى بغلة شهباء أهداها المقوقس الى النبى صلى الله عليه وسلم

المسلمين بقبولها وصلاحيتها ، وكانت هذه الشروط بحمد الله لصالح المسلمين وحاصل ذلك أنه ما مرت فترة طويلة ، بل ما كادت تجف كتابة الشروط حتى لحق أبو بصير (١) بالنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة مستجيرا به وفارا بدينه خوفا من بطش قريش ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم رده وسلمه للرجلين اللذين جاءا يطالبان به احتجاجا بالشروط المتقدم ذكرها ، ووفاء منه بالمعاهدة التي أجراها معهم رده عليهما وقال: "يا أبا بصير انا أعطينا هؤلاء القوم عهدا ولا يصح في ديننا الغدر وأن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق الى قومك "

وخرج أبو بصير مع الرجلين حتى وصلوا ذا الحليفة وجلسوا يأكلون من تمر معهم فاحتال أبو بصير على أحدهما قائلا له أترى سيفك هذا قاطعا يا فلان ؟ فقال: نعم فقال أبو بصير أرني أنظر اليه فأعطاه اياه فعلاه به فقتله ، وفر الآخر حتى أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فلما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال: لقد رأى هذا ذعرا (٢) فلما وصل قال: يا محمد قتل صاحبكم صاحبي واني لمقتول فاذا بأبي بصير ، وصل قال: يا نبي الله قد والله وفى الله ذمتك رددتني اليهم ثم أنجاني الله منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويل أمه مسعر حرب (٣)

---

(١) أبو بصير رجل من المسلمين كان بمكة اسمه عتبة بن أسيد الثقفي حليف بني زهرة ، فتح الباري ج ٥ ص ٣٤٨ المصدر السابق

(٢) الذعر شدة الخوف ، القاموس ج ٢ ص ١٣٤ المصدر السابق

(٣) يقال سعرت النار والحرب اذا أوريتهما والمسعر والمسعار ما تحرك به النار من آلة الحديد بصيغة المبالغة في الحرب والنجدة ويجمعان على مساعر ومساعير ، النهاية لابن الاثير في غريب الحديث ج ٢ ص ٣٦٧

لوكان معه أحد) وكان الرجل فطنا وكيّسا ، وعرف أنه سيرده وأنه لا مقام له في المدينة ولا مأمن له في مكة ، فخرج حتى نزل العيص(١) بالساحل حيث تمر تجارة قريش من الشام على هذا المكان ، وسمع المسلمون بمكة بمقام أبي بصير فلحق به جماعة منهم أبو جندل بن سهيل الذي رده النبي صلى الله عليه وسلم وقت كتابة الصلح وأخذوا يضيقون على قريش تجارتها فلا تمر قافلة الا غنموها ولا يمر رجل منهم الا قتلوه ، لأنهم مطرودون فارون بدينهم وعقيدتهم محرومون من وطنهم ، وأموالهم بسبب ايمانهم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وعند ما رأت قريش أن هؤلاء المسلمين عطلوا حركتها التجارية التي هي العمود الفقري بالنسبة لها ، وأنها أصبحت على خطر منهم ، عند ذلك بعثت الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تسأله بالله والرحم أن يأخذهم عنده ولا يرد اليهم من جاءه مسلما (٢) ، واستجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لرجائها وأرسل اليهم وأخذهم عنده فكانوا مع اخوانهم المسلمين بالمدينة .

واتضحت سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين ، وبرهنت الحوادث

---

(١) اسم موضع قرب المدينة على ساحل البحر ، النهاية ج ٣ ، ص ٣٢٩

(٢) قصة أبي بصير في كتاب الشروط عند البخاري ج ٥ ، ص ٣٣٣
والسيرة النبوية ج ٣ ص ٧٨٧ وزاد المعاد ج ٢ ص ١٤٠

عن حكمته في قبول ذلك الشرط الذي أملته عليه قريش وكانت تفخر بقبول المسلمين له ، أصبحت بعد ذلك تسعى جادة في ابطاله فكان الشرط لاغ وغير ذي بال ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : اني عبد الله ورسوله ولن أعصيه ولن يضيعني (١) ، وصدق عليه الصلاة والسلام اذ قال : من ذهب منا اليهم فقد أبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا ، فقد جعل الله لهم فرجا ومخرجا مما كانوا فيه من الضيق ، وثبت أنه لم يرتد أحد من المسلمين ولله الحمد والمنة .

٤ — ومن النتائج التي تمخضت عن هذا الصلح أن اختلط المسلمون بالكفار حيث كانت الحرية لمن شاء أن يسمع الحق ، مما جعل المسلمين في هذه الآونة يتمكنون من اقناع بعض رجالات قريش من أن الدين صالح للحياة وأنه صاحب سماحة حتى أن كثيرا منهم التف حول المسلمين بسبب هذا الاقناع كخالد بن الوليد الذي صار له الاثر العظيم في مقامه الحربي من رفع راية الاسلام في جميع المعارك التي خاضها حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم لقبه أعظم لقب وأعطاه أعلى وسام ذلك أنه سماه (سيف الله وسيف رسوله) كما دخل في تلك الآونة عمرو بن العاص قائد الفتح في مصر ، كما انضم الى هؤلاء عثمان بن طلحة ، وغيرهم من الرجال الاكفاء الذين كان لهم شأن عظيم فيما بعد . (٢)

---

(١) صحيح مسلم ج ١٢ شرح النووي ص ١٣٩

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص

٧ — هـــذا ومن أعظم نتائج الصلح فتح مكة فانه لم يقع الا بسبب هذا الصلح المبارك وبيان ذلك أن من المعروف أن من شروط الصلح أن من أراد أن يدخل في حلف محمد صلى الله عليه وسلم دخل ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل كما مر ، فدخلت خزاعة في حلف النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش وكانت بين هاتين القبيلتين عداوة سابقة كما ذكر ذلك ابن هشام في السيرة النبوية (١) فاعتدت بنو بكر على خزاعة ، وناصرت قريش حلفاءها بني بكر على الخزاعيين حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ، ناقضة بذلك التصرف عهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم فاستنجدت خزاعة برسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبت منه النصرة حيث جاء سفيرها (٢) الى النبي صلى الله عليه وسلم وأنشد أمامه الأبيات التالية :

يارب اني ناشد محمدا .. حلف أبينا وأبيه الاتلدا
قد كنتم والدا وكنا ولدا .. ثمت أسلمنا فلم نزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أيدا .. وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا .. ان سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا .. ان قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا .. وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا .. وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا .. وقتلونا ركعا وسجدا (٣)

---

(١) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام ج ٤ ص ٨٥٤

(٢) عمرو بن سالم الخزاعي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام ج ٤ ص ٨٥٤

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ٨٥٤ — ٨٥٥

فعزم النبى على نصرة خزاعة وفتح مكة وتطهيرها من الشرك والأوثان فأحست قريش أنها ارتكبت خطأ فاحشا بسبب نقضها العهد الذى أبرمته مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديبية ، ولكن قد فات الأوان ولات ساعة مندم .

ففكرت قريش فى عمل تعمله يكون بديلا عن الحرب فأجمعت أمرها على أن يخرج أبوسفيان الى المدينة لعله يعيد الأوضاع على ما كانت عليه من ذى قبل وتعود المياه الى مجاريها الطبيعية ، فيجدد العقد ويزيد مدة الهدنة .

وقابل الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يجبه الى شئ مما طلب ، فذهب يطلب من أبى بكر يكلم له النبى صلى الله عليه وسلم ، فرفض أبو بكر الوساطة ، ثم كلم عمر أن يشفع له فاستنكر عليه (١) عمر ذلك ، وقال : أأنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به ، فذهب الى على بن أبى طالب فقال : ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أمر ما نستطيع أن نتكلم فيه .

فرجع الى قومه بمكة بدون نتيجة (٢) فتجهز النبى صلى الله عليه وسلم وأمر الناس بذلك فخرج الى مكة بجيش عظيم عدده عشرة آلاف مقاتل ودعا الله أن يعمى قريشا عن خبر مسيره ، وسار حتى وصل مكة ففتحها وطهر الله بيته العتيق من الرجس وأصبحت مكة فى حوزة المسلمين ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

---

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام جـ ٤ ص ٨٥٤ — ٨٥٥

(٢) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام جـ ٤ ص ٨٥٦

ان صلحا هذه بعض نتائجه لحقيق أن يسمى فتحا مبينا ، فكانت قريش في عمرة الحديبية تحلف بالله ، وتغلظ الايمان أن لا يدخلها عليها محمد عنوة كيف تتحدث عنا العرب بذلك ؟ وانا أخذنا ضغطة ، وما هي الا أيام قلائل تمضي لا تتجاوز السنتين ، ويأتي الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه بهذا الجيش العظيم ، فيدخلون مكة رافعين رؤوسهم غير مكترثين بأعدائهم .

وفي الآونة التي كانت بعد صلح الحديبية اشتغل المسلمون بنشر الدعوة الاسلامية وعرضها على الناس كافة في كل مكان ، فاكتسبوا عددا كثيرا من الناس وجذبوهم الى الدخول في حظيرة الاسلام ، وكثر عددهم وصارت لهم القوة والمنعة مع تمسكهم لقريش بالعهد الذى عقدوه معها ، بينما ظلت قريش على جمودها القديم في ادارة سياستها وكان همها الاشتغال بالتجارة واصلاحها الداخلي غير مبالية بالأحداث الخطيرة التي غيرت الأحوال والعقول في الجزيرة العربية بعد ذلك الصلح .

قال الزهري: (١) مشيدا بهذا الصلح وفوائده التى عادت على المسلمين: " فما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه انما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا وتفاوضوا في الحديث وحصلت مجادلات ومناظرات ، فلم يكلم أحد يعقل شيئا الا ودخل في الاسلام ولقد دخل في تينك السنتين مثل من دخل في الاسلام قبل ذلك أو أكثر ".

---

(١) الزهري هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب القرشي الزهري اتفق على جلالته واتقانه . التقريب ، ابن حجر ج ٢ ص ٢٠٧

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف(١) .

وذكر القرطبي وغيره عن الشعبي في معنى قوله تعالى (انا فتحنا لك فتحا مبينا " قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب بها ما لم يصب في غزوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعم الله المسلمين — نخيل خيبر وظهر الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس (٢) .

قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) اللام متعلقة بقوله (فتحنا) وهي لام العلة ، واختلف في توجيه التعليل

فقال الرازي : ان المراد بقوله (ليغفر لك الله) التعريف بالمغفرة والاعلام (٣) التقدير ، انا فتحنا لك لتعرف أنك مغفور لك معصوم ،

وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك فكأنها لام الصيرورة (٤) .

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ج ٣ ص ٧٨٦ — ٧٨٧
(٢) القرطبي ج ١٦ ص ٢٦٠ — ٢٦١
(٣) التفسير الكبير للرازي ج ٢٨ ص ٧٨ الطبعة الأولى بمصر
(٤) فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٤٥

وقال الزمخشري: ان اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الامور الاربعة وهي المغفرة واتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز كأنه قيل يسرنا لك فتح مكة (١) ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل (٢) و (ما) في قوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) للعموم والمتقدم والمتأخر للاحاطة كناية عن الكل (٣) .

واختلف في معنى قوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر " فقيل ما تقدم في الجاهلية وما تأخر في الاسلام ونقل هذا عن مقاتل (٤) .

وقال الطبري: وقد تأول بعضهم ذلك بمعنى ليغفر ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة وما تأخر بعد نزول السورة (٥)

وقيل المراد : جميع ما فرط من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة (٦) .

وهناك أقوال لم أوردها لضعفها وبعدها من أن تكون مرادة .

والذي يبدو لي أن المراد ما تقدم نزول سورة الفتح وما تأخر عن نزولها الى أن يلقى النبي صلى الله عليه وسلم ربه لأن ما قبل نزولها شامل لما كان قبل النبوة حتى نزولها وما تأخر عن نزولها هو شامل لبقية حياته الكريمة، ولأن السورة هي التي حملت هذا الخبر السار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه فالأظهر جعل وقت نزولها غاية لما تقدم نزولها ، وبداية لما تأخر عن نزولها والله أعلم .

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٥٤١
(٢) لأنه ممن يرى أن المراد بالفتح فتح مكة
(٣) روح المعاني للآلوسي ج ٢٦ ص ٩١
(٤) الكشاف للزمخشري ج٣ ص ٥٤١
(٥) الطبري ج ٢٦ ص ٤٣
(٦) فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٤٥

والظاهر أن المراد بالذنب المذكور ما فرط منه صلى الله عليه وسلم كالذى ورد فى القرآن من عتابه صلى الله عليه وسلم على بعض الاجتهادات التى لم يقره عليها القرآن مثل اعراضه عن الأعمى (١) قال تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) .

ومثل أخذه الفداء من أسرى بدر قال تعالى (ما كان (٢) لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ... الآية

ومثل قبوله : أعذار المخلفين فى غزوة تبوك قال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) (٣) .

وما شابه ذلك والله تعالى أعلم ، وسمى ذنبا فى حقه لعظم صلته بربه وعظم منزلته عنده ، فهذا من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ويؤيد هذا القول أنا لو عرضنا سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لم نجد له ذنبا عن تعمد ولا عن خطأ ، وكل ما فى الأمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اجتهد فى أمور قبل أن ينزل عليه الوحى فيها فنزل الوحى بعتابه معاتبة مؤدية يظهر فيها أن الله عز وجل قد عفا عنه وغفر له كقوله عفا الله عنك لم أذنت لهم ، وكقوله : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)(٤) فهذا غاية ما يقال فى هذا المجال، وحذار من أن

---

(١) سورة عبس الآية رقم ٢

(٢) سورة الانفال الآية رقم ٦٧ — ٦٨

(٣) سورة التوبة الآية رقم ٤٣

(٤) الانفال الآية رقم ٦٨

يخطر ببال أى مؤمن أن النبى صلى الله عليه وسلم حصل منه قط أى شئ من جنس الذنوب حتى ولا فى الجاهلية لأن الله سبحانه هيأه لرسالته وتبليغها ، وقد عصمه من كل خطأ وزلل ، فالأنبياء وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معصومون عصمهم الله لحكمة أرادها ، وجعلهم مختارين من بين خلقه أمناء وحيه ، فكيف لا يعصمهم وهو سبحانه قد خصهم بمزايا لم يخص بها غيرهم . فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويختار ، ويعلم حيث يجعل رسالته .

قوله تعالى (ويتم نعمته عليك) تمام الشئ انهاؤه الى حد لا يحتاج الى شئ خارج عنه (١) والنعمة بالكسر المسرّة والحالة الحسنة (٢) .

والمعنى يجمع الله لك كل ما يسرّك فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا أتم نعمته عليه بنصره على أعدائه واظهار دينه فى جميع البلاد حتى أظهره الله على جميع الأديان، وأما اتمام النعمة عليه فى الآخرة فبدخوله الجنة وبكونه سيد أهل الجنة وبكون الشفاعة الكبرى له ، وهو صاحب المقام المحمود الذى يحمده عليه الأولون والآخرون

قوله (ويهديك صراطا مستقيما) أى يثبّتك على الحق فتلزمه فى جميع أحوالك حتى يتوفاك اليه وهو عنك راض .

قوله : (وينصرك الله نصرا عزيزا) أى قويا منيعا لا يتبعه ذل ولا خذلان

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى جـ ١ ص ٧٥

(٢) القاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٤ ص ١٨٣ والمفردات فى غريب القرآن جـ ١ ص ١٩٩

وفى روح المعانى : اظهار الاسم الجليل — الله — مع النصر قيل : لكونه خاتمة العلل أو الغايات ، والاظهار كمال العناية بشأنه كما يعرب عنه اردافه بقوله تعالى (نصرا عزيزا) (١) .

وفيه اشارة الى أن النصر لا يكون الا من عنده عز وجل لأنه هو القادر على ذلك لأحد غيره كما قال تعالى (وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم) (٢) .

قوله تعالى : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) السكينة الطمأنينة والثبات .

قال الراغب : السكون ثبوت الشئ بعد التحرك ، وقيل هى ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه ، وذكر عن علىّ رضى الله عنه ان السكينة لتنطق على لسان عمر . (٢)

وعن ابن عباس الرحمة والطمأنينة (٣) .

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أدخل الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، فسلموا لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية ، وطابت نفوسهم به .

قوله تعالى (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) أى ليزدادوا بسبب تلك السكينة ايمانا منضما الى ايمانهم الحاصل لهم قبلها .

---

(١) روح المعانى للآلوسى ج ٢٦ ص ٩١

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى ج ١ ص ٢٣٧

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٨٤

وهذه الآية الكريمة من الآيات التي استدل بها الجمهور على زيادة الايمان ونقصه ومن هؤلاء الجمهور البخاري رحمه الله تعالى حيث ذكر الآية في الصحيح (١) مستدلا بها على زيادة الايمان ، وذكر أيضا أقوالا عن بعض الصحابة والتابعين منها ما ذكره عن معاذ بن جبل كان يقول - اجلس بنا نؤمن ساعة - مع أنهم كانوا مؤمنين وانما أراد أن يتقوى ايمانهم بذكر الله تعالى وذكر ما أعد لعباده الصالحين من النعيم في دار الآخرة ، وذكر ما أعد للكفار من عذاب النار يوم القيامة فيزدادوا ايمانا الى ايمانهم قال :

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن عدي (٢) ان للايمان فرائض (٣) وشرائع وحدودا (٤) وسننا فمن استكملها استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل

---

(١) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ج ١ ص ٤٥ ، كتاب الايمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الاسلام على خمس

(٢) أي ابن عمرة الكندي وهو تابعي من أولاد الصحابة وكان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة فلذلك كتب اليه ، فتح الباري لابن حجر ج ١ ص ٤٧

(٣) الفرائض جمع فريضة وهي الأعمال المفروضة من قبل الله ورسوله كالفروض وأصل الفرض القطع والحز كالتفريض القاموس ج ٢ ص ٣٤٢ والمراد أن التزام ما أوجبه الله ورسوله من الأعمال التي هي من كمال الايمان ، والشرائع جمع شريعة . قال ابن الاثير : الشرع والشريعة هو ما شرعه الله لعباده من الدين أي سنه لهم وافترضه عليهم ج ٢ ، ٤٦٠

(٤) الحد الحاجز بين الشيئين وفي الاصطلاح تأديب المذنب القاموس ج ١ ص ٢٩٦ من أجل المنهيات التي نهى الله عنها أو نهى عنها رسوله صلى الله عليه وسلم ومنع المسلم من قربانها

الايمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وان أمت فما أنا على صحبتكم بحريص (١) .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية — رحمه الله — تنازع الناس في اسم المؤمن والايمان نزاعا كثيرا ، من ذلك النزاع ما هو خلاف لفظي ، والكثير من النزاع معنوي الى أن قال : والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف وهو مذهب أهل الحديث وهو المنسوب الى أهل السنة أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، كما أن مذهب أهل السنة جواز الاستثناء (٢) كما قال عمير بن خبيب الخطمي وغيره من الصحابة الايمان يزيد وينقص فقيل له وما زيادته وما نقصانه ؟ فقال : اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ، واذا أغفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه .

فهذه الألفاظ المأثورة عن جمهورهم ... (٣) .

فالايمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح كما قال السلف فالذى لا ايمان له لا ينطق بالشهادتين ، والمنافق وان نطق بهما فقلبه خال من مقتضاهما ، والعمل مصدق لما يقال ويعتقد ، وهو عند السلف شرط في كمال الايمان . (٤)

---

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٨ كتاب الايمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الاسلام على خمس
(٢) تقول : أنا مؤمن ان شاء الله
(٣) الفتاوى الكبرى لشيخ الاسلام ابن تيمية ج ٧ ص ٥٠٤ ط الأولى
(٤) الفتاوى الكبرى لشيخ الاسلام ابن تيمية ج ٧ ص ٥٠٤ ط الأولى

واذا ثبت أن الايمان قابل للزيادة ثبت أنه قابل للنقصان ، قال ابن حجر : وبثبوت الزيادة يثبت المقابل فان كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة (١) .

ومسألة زيادة الايمان ونقصه تحتاج الى كتابة رسالة مستقلة ، وليس هذا موضع استقصاء البحث فيها ، وانما أردنا بيان ما أثبتته الآية الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها .

قوله تعالى (ولله جنود (٢) السموات والأرض) ينصر بهم من يشاء نصرته من عباده المطيعين له ويهزم بهم من يشاء ممن أراد لهم الخذلان أو الانتقام ، فهو المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى علمه وحكمته .

ولذا ذيل الآية بقوله : (وكان الله عليما حكيما) فى تقديره وتدبيره فلو اقتضت حكمته أن يكون الأمر كما أراد المؤمنون من دخول مكة فى ذلك العام لأمكنهم من ذلك لأنه لا يعجزه شئ لا فى السماء ولا فى الأرض ، ولكن أخر ذلك لعلمه وحكمته البالغة التى لا يحاط بكنهها ، فأراد سبحانه لنبيه عقد الصلح مع المشركين ورجوع المسلمين للعمرة فى العام الذى بعد هذا ، بالهامه عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ذلك التصرف مع المشركين والرسول صلى الله عليه وسلم واثق من نصر الله له ولذا قال : (انى عبد الله ورسوله ولن يضيعنى) وقد ظهر للمسلمين برهان ذلك جليا فيما بعد .

---

(١) فتح البارى لابن حجر ج ١ ص ٤٦

(٢) الجنود ، قال ابن فارس : الجيم والنون والدال يدل على التجمع والنصرة معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٤٨٥ ، ويقال للعسكر جند اعتبارا لغلظته من الجند وهى الأرض الغليظة التى فيها حجارة ، مفردات القرآن للراغب الاصفهانى ج ١ ص ١٠٠

بشارة المؤمنين بما اعد الله لهم

قال تعالى : (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفّر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) .

لما بشر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بما اعده له من الامور المذكورة في اول السورة من الفتح المبين وغفران الذنوب المتقدم منها والمتأخر واتمام انعامه عليه وتثبيته اياه على الهدى ونصره نصرا قويا ، وسمع ذلك المؤمنون عندما قرأ عليهم النبى صلى الله عليه وسلم الآيات فهنأوه ثم تطلعوا الى نصيبهم من هذه النفحات الربانية والبشائر السماوية تطلع الظمآن الى الماء فقد أخرج البخارى والترمذى واحمد عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر مرجعه من الحديبية فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد نزلت علىّ آية أحب الىّ مما على الأرض ثم قرأها النبى صلى الله عليه وسلم عليهم فقالوا هنيئا مريّا رسول الله لقد بين لك الله ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ . فنزلت عليه ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار حتى بلغ " فوزا عظيما " .

قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح واللفظ هنا للترمذى .(١)

وعند البخارى عن انس قال أصحابه هنيئا مريئا فما لنا فأنزل الله (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار) (٢)

---

(١) انظر جامع الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى ج ٩ ص ١٤٨

(٢) انظر الجامع الصحيح للبخارى ج ٥ ص ١٦٠

واللام فى قوله (ليدخل) متعلقة بفتحنا أو بمحذوف يدل عليه ما قبله ، وتقديره يبتلى بتلك الجنود من يشاء ، فيقبل الخير من أهله ، ويقضى بالشر لمستحقه كما يأتى فى الآية التى بعدها ، والمراد بالمؤمنين جميع من يدخل تحت هذا اللفظ من الصحابة وغيرهم ، ممن صدّق بالله ووحّده فى عبادته اياه ، وصدق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقول بأن المؤمن هنا عام لجميع المسلمين لا ينافيه ما ورد فى سبب نزولها لأن القاعدة المقررة فى علم القرآن والأصول العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعليه فكل مؤمن يشمله هذا الوعد الصادق الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم صحابته رضوان الله عليهم من ادخالهم الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، قوله تعالى (ويكفر عنهم سيئاتهم) يغطيها ويسترها ولا يظهرها لهم فلا مؤاخذة عليها ، وقدم هنا ادخال الجنة على تكفير السيئات مع أن دخول الجنة مترتب على ذلك لما فيه من تعجيل المسرة لهم ، لأن دخول الجنة غاية المطالب وأعلاها ، والاشارة فى قوله (وذلك الفوز العظيم) الى ما ذكر من دخول الجنة وتكفير السيئات .

قال سيد قطب — رحمه الله تعالى — عند الكلام على هذه الآية ، واذا كان هذا في حساب الله فوزا عظيما فهو فوز عظيم في حقيقته ، وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند الله مقدرا بتقديره ، موزونا بميزانه ، ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ، وكانوا قد تطلعوا بعد ما سمعوا افتتاح السورة ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله ، تطلعوا الى نصيبهم وسألوا عنه فلما سمعوا وعلموا — بما بشرهم الله به — فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين . (٢)

---

(١) ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٣١٩ طبعة الشروق

(نصر المؤمنين ورفع معنوياتهم يغيظ أعداءهم)

قوله تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) (١) .

بعد أن ذكر الله تعالى ما وهب المؤمنين من النصر وانزال السكينة ، وزيادة الايمان ودخول الجنة وتكفير ذنوبهم ، وعدم مؤاخذتهم عليها ، بعد ذلك ذكر ما أعد من العذاب للمنافقين والمشركين ، ذكورا واناثا ، ولا شك أن ما أعد الله لصالحي عباده من الأمور السابقة الذكر يغيظ أعداءهم ويحزنهم ، ويجلب لهم الهم والغم ، لما يشاهدونه من ظهور المؤمنين عليهم ، ونجاح دعوتهم مع ما يجد هؤلاء الأعداء من العذاب زيادة على ذلك من القتل لهم والأسر والهزيمة على أيدي المؤمنين المجاهدين في سبيل الله تعالى ، وما ذكر هو بعض جزائهم في الدنيا ، وأما في الآخرة فان الله أعد لهم عذاب جهنم وغضبه عليهم وطردهم من رحمته والعياذ بالله من غضبه . والجملة معطوفة على ماقبلها أي ليدخل وليعذب ، والمنافقين جمع منافق (٢) ،

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ٦ — ٧

(٢) وأصله من النفق وهو الطريق النافذ والسرب في الأرض ومنه قوله تعالى (فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية) الانعام الآية رقم ٣٥ . وقال صاحب لامية العجم :
وان جنحت اليه فاتخذ نفقا .. في الأرض أو سلما في الجو واعتزل
والنفاق الدخول في الشرع من باب والخروج من باب آخر قال تعالى : (ان المنافقين هم الفاسقون) سورة التوبة الآية رقم ٦٧ والفاسقون الخارجون من الشرع ، المفردات للراغب جـ١ ، ٢ ، ٥٠٢ .

وهو الذى يظهر الاسلام ويبطن الكفر تقية على دمه وماله ، والمشركين جمع مشرك ، والمراد بالشرك عبادة أو دعاء غير الله معه فهو الشرك الأعظم الذى توعد الله أهله بعدم الغفران لهم قال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١) (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (٢) الى غير ذلك من الآيات الدالة على قبح الشرك وأنه أعظم الذنوب الموجب الخلود فى نار جهنم ، وقدم المنافقين فى الذكر على المشركين فى الآية الكريمة لأنهم أعظم ضررا وخطرا على المسلمين من أعدائهم المجاهرين لهم بالعداوة لأن العدو المجاهر يكون المسلم دائما على حذر منه وبامكانه الاحتراز منه لأنه معلنا عداوته وكفره ، فمجاهدته ممكنة ، أما المنافقون فانهم مخالطون للمسلمين ، ومجالسون لهم ، وحالهم فى الظاهر واحدة لأنهم مقرون بالاسلام حسب الظاهر فلا يمكن الاحتراز منهم ، وفى نفس الوقت لا يؤمن غدرهم وكيدهم للمسلمين .

وكثيرا ما تقع منهم الدسائس ضد المسلمين ، ويبرمون الاتفاقيات مع اليهود ، كما ظهر ذلك منهم جليا فى وقعة الأحزاب، وقد حصل منهم التحريض الكبير محاولين بذلك ايقاع الفتنة بين الأنصار والمهاجرين ، ودأبوا على أنهم اذا فعلوا شيئا من خبثهم وأطلع الله رسوله — صلى الله عليه وسلم — عليه جاءوا معتذرين ، يحلفون

---

(١) النساء الآية رقم ٤٨

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٧٢

ما قالوا ولا فعلوا ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الحال يتركهم ويكل أمرهم وسرائرهم الى الله تعالى ما داموا معلنين الاسلام ، وقد أعلن صلى الله عليه وسلم عظيم تسامحه لهؤلاء المنافقين فى أسمى صوره وأبهاها وذلك عندما استأذنه بعض الصحابة فى قتل رئيس المنافقين عبد الله بن أبيّ فمنعه وقال : لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه ، وذلك سياسة منه صلى الله عليه وسلم وحرصا على أن يدخل الناس فى الاسلام وخوفا من أن يكون هناك أى منفر فى الاسلام .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بسياسته هذه وحكمته جعلت من أبناء المنافقين من يلتف حول الرسول صلى الله عليه وسلم ويكون له فى الاسلام شأن عظيم ولا شك أنه قد فضح الله عز وجل المنافقين فى غير ما آية من القرآن وبين خبثهم ومخادعتهم للاسلام وأهله ، وقد نزلت فيهم سورة بأكملها تكذبهم فيما يظهرونه وتبين أنهم اتخذوا أيمانهم جنة وسترة من ايقاع المسلمين بهم .

ووصف الله عز وجل كلا من المنافقين والمشركين وصفا صوّر فيه حالهم وبيّن ما دار فى نفوسهم فقال تعالى (الظانين بالله ظن السوء) وظن السوء هذا هو الذى ظنوه بالله بأنه لا يرجع رسوله والمؤمنين من عمرة الحديبية ، وقد بينه فى آية أخرى من هذه السورة بقوله (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا) وسيأتى الكلام عليها فى موضعه ان شاء الله تعالى .

والظن اسم لما يحصل عن امارة ، ومتى قويت أدت الى العلم ومتى ضعفت

لم يتجاوز حد التوهم ، فمن الأول قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون (١) .

ومنه قوله (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أى اعتقدوا ذلك اعتقادا كانوا منه فى حكم المتيقن ومن هذا القبيل الآية التى نحن بصدد شرحها وهى قوله (الظانين بالله ظن السوء) قوله (عليهم دائرة السوء) الدائرة تستعمل فى المكروه أى يحيط بهم السوء احاطة الدائرة بمن فيها فلا سبيل لهم الى الانفكاك منه (٢) بوجه وهذا يحتمل أن يكون اخبارا ، ويحتمل أن يكون دعاء عليهم وعلى كل فهو واقع بهم لا محالة ، والسوء بفتح السين وضمها مع التشديد فيها وقراءة الفتح أعم وأقيس وبها قرأ الجمهور .

قال ابن جرير : واختلف القراء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الكوفة دائرة السوء بفتح السين ، وقرأ بعض قراء البصرة دائرة السوء بضم السين .

وكان الفراء يقول : الفتح فى السين أفشى ، وقلما تقول العرب دائرة السوء بضم السين والفتح فى السين أعجب الى من الضم لأن العرب تقول رجل سوء بفتح السين ولا تقول هو رجل سوء بضم السين (٣) قال الألوسى : والفرق بينهما — أى الفتح والضم — أن المفتوح مصدر ، والمضموم اسم مصدر بمعنى المساءة (٤) ، وقيل هما

---

(١) المفردات فى غريب القرآن المصدر السابق ج ١ ص ٣١٣ ومقاييس اللغة لابن فارس ج ٣ ص ٤٦٢

(٢) المفردات للراغب المصدر السابق ج ١ ص ١٧٤

(٣) جامع البيان للطبرى ج ٢٦ ص ٤٦

(٤) روح المعانى للألوسى ج ٢٦ ص ٩٥

لغتان بمعنى الكره والكره ، وكلاهما مصدر في الأصل غير أن المفتوح غلب في أن يضاف اليه ما يراد ذمه ، والمضموم جرى مجرى الشر .

قال الراغب : السوء كل ما يغم الانسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية ، والبدنية ، والخاصة ، من فوات مال وجاه وفقد حميم (١) .

قوله تعالى (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا)
عطف على ما استحقوه في الدنيا ما استحقوه في الآخرة ، والمعنى قد نالهم في الآخرة بسبب ما ظنوه تجاه الله ورسوله والمؤمنين ، غضب من الله ومن يحل عليه غضب الله فقد هوى الى الحضيض كما قال تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) (٢) .

قوله (وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) مهيأة لهم ومعدة وساءت مصيرا أي منزلا يأوي اليه هؤلاء المنافقون والمشركون ثم بين تعالى قدرته على ما يشاء أن يفعله من تعذيب من يستحق العذاب من خلقه فلا يعجزه شئ فله جنود السموات من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقد نصر الله بهم المسلمين في غير ما مرة كغزوة بدر

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب جـ ١ ص ٢٥٢
(٢) سورة طه الآية رقم ٨١

قال تعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (١)

وكذلك نصر الله المسلمين فى غزوة الأحزاب بجنوده سبحانه وكان من بين هؤلاء الجنود الملائكة فى قول الجمهور . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاء تكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) (٢)

ولا شك أن من بين جنود الله التى ينصر بها أولياءه الريح كما حدث فى وقعة الأحزاب كما تقدم قبل قليل فى الآية .

وجنود الأرض كل من فيها من عباد الله ملكا كان أوجنيا أو انسيا أو شيطانا ، وقد تقدم فى الآية الأولى ما يفيد أن الله هو المدبر لأمر عباده ، وأن أفعاله وأقواله مبنية على العلم والحكمة ، وذيل الآية هناك بما يشعر بذلك فقال : (وكان الله عليما حكيما) لكونها ذكرت بعد ذكر ما وهبه الله تعالى للمؤمنين فكان من المناسب أن تختم بما يشعر بالرحمة والعلم ، وأن جنوده مع عباده المخلصين تحميهم وتحرسهم حتى يدخلوا الجنة ، وقد ختم الآية هنا بما يفيد القوة والغلبة على أعداء الله ، وفى ذلك تهديد لهم وأنهم فى قبضة يده .

قال تعالى (وكان الله عزيزا حكيما) وقيل : ان الجنود جنود رحمة وجنود عذاب

---

(١) الانفال الآية رقم ١٢
(٢) سورة الاحزاب الآية رقم ٩

وأن المراد هنا جنود العذاب كما يشعر به وصف العزة والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد للمنافقين والمشركين ، فلو أراد سبحانه اهلاكهم لأهلكهم فى أسرع وقت لأنه لا يعجزه شىء مما أراد قال تعالى (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (١)

---

(١) سورة يس الآية رقم ٨٢

الغرض من ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) (١) .

بعد : أن بين الله عز وجل ما أعد للمؤمنين وما أعد للمنافقين والمشركين عاد بالكلام والخطاب الى الرسول صلى الله عليه وسلم مبينا لوظيفته والغرض الذى أرسل من أجله والغاية من ارساله ، وهو أن يكون شاهدا على الأمة بتبليغ الرسالة اليهم وأنه صلى الله عليه وسلم شاهدا عليهم يوم القيامة بما أجابوا به من الطاعة والعصيان ويجوز أن يكون شاهدا على الأمم كلها .

ذلك أن الأمة المحمدية تشهد على الناس كافة قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (٢)

وقال تعالى (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (٣) .

وقد وردت هذه الآية في التوراة وتحدثت عن هذا الغرض الذى أثبته الله فى القرآن الكريم ، روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن هذه الآية التى فى القرآن (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) قال

(١) سورة الفتح الآية رقم ٨ ، ٩

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٤٣

(٣) سورة النساء الآية رقم ٤١

فى التوراة يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا اله الا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا) (١) .

وأخرجه فى كتاب البيوع، وذكر سبب تحديث عبد الله بن عمرو به وهو أن عطاء بن يسار سأله عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة قال: أجل والله انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن وذكر الحديث (٢) .

قوله: شاهدا، أى شاهدا على الأمة مبشرا للمطيعين بالجنة وللعصاة بالنار، أو شاهدا للرسل قبله بالابلاغ، وحرزا أى حصنا والمراد بالأميين العرب، والمراد بالمتوكل أى المتوكل على الله لقناعته باليسير والصبر على المكروه .

قوله ولا غليظ هو كقوله: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (٣) ولا يعارض هذا قوله تعالى (واغلظ عليهم) (٤) لأن النفى محمول على طبعه الذى جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفى بالنسبة للمؤمنين، والأمر بالنسبة للكفار والمنافقين كما صرح به فى نفس الآية .

---

(١) صحيح البخارى فتح البارى ج ٦ ص ١٦٩ باب انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ

(٢) صحيح البخارى ج ٣ ص ٨٧ باب كراهية الصخب فى السوق

(٣) سورة آل عمران الآية رقم ١٥٩

(٤) سورة التحريم الآية رقم ٩

والسخب رفع الصوت العالي والجلبة ويروى بالصاد والسين ، والمعنى واحد (١) .

قوله (ولا يدفع السيئة) هو مثل قوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن) (٢) ولن يقبضه الله أي يميته ، حتى يقيم به الملة العوجاء ، أي حتى ينفي الشرك ويثبت التوحيد والملة العوجاء ملة الكفر ، فيفتح الله بها أي بكلمة التوحيد ، أعينا عمياء عن الحق .

قال ابن حجر : ويستفاد منه أن دخول الامام الأعظم السوق لا يحط من مرتبته لأن النفي انما ورد في ذم السخب فيها لا عن أصل الدخول (٣) وقلوبا غلفا أي مغشاة ومغطاة ومنه غلاف السيف وغيره (٤) ومبشرا للمؤمنين الطائعين بالجنة ونذيرا للعصاة المخالفين بالنار كما قال تعالى (فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا) (٥) ولا يخفى أن شاهدا منصوبة على الحال المقدرة ومبشرا ونذيرا حالان معطوفتان عليها والمعنى : أرسلناك مقدرين أنك شاهدا ومبشرا ونذيرا.

قوله تعالى (لتؤمنوا بالله ورسوله) اللام في لتؤمنوا للتعليل أي أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله أنتم أيها الناس .

أوجه القراءة في الآية

قرأ الجمهور بالتاء وعلى هذا يكون الخطاب لرسول صلى الله عليه وسلم وأمته

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ج ٣ ص ٣٣٦

(٢) سورة فصلت الآية رقم ٣٤

(٣) فتح الباري المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤٣

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٣ ص ٣٧٩

(٥) سورة مريم الآية رقم ٩٧

فيفيد أن الرسول خاطبا بالايمان بشريعته وفيه تغليب المخاطب على الغائب كقوله عز وجل (يا أيها النبي اذا طلقتم النساء)
والمعنى أرسلناك لتؤمنوا بالله وتنهضوا بتكاليف الشريعة .

وقرأ بعضهم بالياء والمعنى أرسلناك ليؤمنوا بالله ورسوله فيكون الخطاب للمبشرين والمنذرين قال ابن جرير الطبري : بعد ما ذكر القراءتين في قوله تعالى (لتؤمنوا قال : والصواب من القول في ذلك أن يقال : انهما قراءتان صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب (١) قوله (وتعزروه) التعزير ضربان يأتي ويقصد به النصرة والتقوية والتفخيم والتعظيم ، والضرب الثاني يطلق على التأديب والضرب دون الحد وهو أشد الضرب (٢) والمراد هنا الأول لأن الثاني ممتنع في حق الرسول صلى الله عليه وسلم شرعا وعقلا ، وسياق الآيات يؤيد المعنى الأول قال الراغب : التعزير النصرة مع التعظيم قال : (وتعزروه) وعزرتموهم) والتعزير ضرب دون الحد وذلك يرجع الى الأول ، فان ذلك تأديب والتأديب نصرة ، لكن الأول نصرة بقمع ما يضره عنه ، والثاني نصرة بقمع عما يضره فمن قمعته عما يضره فقد نصرته .

وعلى هذا الوجه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ، قال : أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ فقال : كفه عن الظلم (٣) .

---

(١) تفسير الطبري ج ٢٦ ص ٤٧
(٢) القاموس المحيط ج ٢ ص ٩١
(٣) مفردات القرآن للراغب ج ١ ص ٣٣٣

وهو ظاهر في غير حق النبي صلى الله عليه وسلم ، فيكون نصر النبي صلى الله عليه وسلم بنصر دينه والقيام معه على نشره والايمان به وعن عكرمة نصرته تكون معه بالسيف .

(وتوقروه) التوقير التبجيل والتزيين(١) وعن قتادة (توقروه) قال : أمر الله بتسويده وتفخيمه .

(وتسبحوه) أي الله والتسبيح التنزيه لله في العبادة قولا وفعلا (٢) (بكرة وأصيلا) أي أول النهار وآخره ويشمل ما بينهما والخلاف في قراءة الأفعال الثلاثة تعزروه ، وتوقروه ، وتسبحوه ، كالذي قبله في لتؤمنوا ، واختلف في مرجع الضميرين فقيل : انهما في تعزروه وتوقروه راجعان الى الرسول صلى الله عليه وسلم ويكون هنا وقف تام ثم تبتدئ وتسبحوه (٣) لأن التسبيح خاص بالله عز وجل وهذا متعين عند الكل .

وقيل : ان الضمائر كلها لله تعالى تعزروه ، وتوقروه وتسبحوه ، فيكون التعزير في جانب الله بالنصرة والتقوية لدينه ، والتوقير التعظيم له تعالى حتى لا يحصل تفريق بين الضمائر من غير ضرورة ، وممن قال بهذا الزمخشري حيث قال : والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن فرق بين الضمائر فقد أبعد (٤) .

---

(١) القاموس المحيط الفيروزابادي ج ٢ ص ٤٧
(٢) مفردات القرآن للراغب ج ١ ص ٢٢١
(٣) القرطبي ج ١٦ ص ٢٦٧
(٤) انظر الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٥٤٢

مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم هي مبايعة لله

قوله تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) (١) .

(ان الذين يبايعونك) المبايعة مفاعلة من البيع وعبّر هنا بالمبايعة لما فيها من معنى المبادلة لأنّ المؤمنين بايعوا رسول الله على الموت كما يأتي تفصيله مقابل رضاء الله الذي هو سبب دخول الجنة كما قال تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن) (٢) فعبر عن قبوله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيل الله واثابته اياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة (٣) وكذلك ما حصل في بيعة الرضوان فالمؤمنون بذلوا الطاعة لله ورسوله — صلى الله عليه وسلم — وبايعوا على الموت في سبيل الله وباعوا أنفسهم لله تعالى بما سيثيبهم الله به من دخول الجنة وذلك أغلى شيء وأعزه على النفوس ، والمراد بقوله تعالى (ان الذين يبايعونك) هم

---

(١) سورة الفتح رقم الآية ١٠

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١١١

(٣) تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ٦١٧

المؤمنون الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان تحت الشجرة وفي الحديبية وعبر بالمضارع مع أن السورة نزلت بعد ذلك لاستحضار السورة العجيبة والتنويه بشأن المبايعين وعظم البيعة ، ومن جرت على يديه ، فالنبي صلى الله عليه وسلم حين يضع يده في أيدي المبايعين فان البيعة جارية مع الله عز وجل ، وهو حاضرها ومطلع عليها ، وراض عنها وعن من جرت على أيديهم ، ولهذا أكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله (يد الله فوق أيديهم) فان يده عز وجل تعلو أيدي الجميع لأن يد الله صفة عظيمة من صفاته لا يدرك كنهها ولا حقيقتها ويجب علينا أن نصدق الله فيما أخبر به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تأويل قال تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) (١) .

هذا وعقيدة سلفنا الصالح في مثل هذه الصفات أن نؤمن بها على مراد الله وعلى مراد رسوله ونقطع الطمع عن ادراك الكنه كما قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

وهذه أم سلمة وربيعة الرائي ومالك لما اسئلوا عن الاستواء كل أخبر بأن الاستواء موجود كما أخبر الله والايمان به واجب والسوءال عنه بدعة وباقي الصفات كالاستواء لا فرق بين صفات الله عز وجل فكلها صفات جلال وكمال ، ولهذا قال صاحب النظم (٣) :

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٦٤

(٢) سورة الشورى الآية رقم ١١

(٣) هو العالم المعروف بالزبيدي اليمني

وحسن فى ذاك قول الشافعى .. ومن غدا لنهجه من تابعى
ما فى كلام الله من مشتبه .. على مراد الله نومن بـــه
وما يكون من كلام الهادى .. على مراد أشرف العبـــاد
اذ لم يكلف ربنا عبـــاده .. بمثل ذا أن يعرفوا مـــراده

فالله سبحانه هو صاحب البيعة والعقد الذى جرى مع رسوله — صلى الله عليـــه وسلم — جار معه عز وجل من غير تفاوت ، كما قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطـــاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) (١)

ان هذا التصوير الرهيب لهذه البيعة ليعطى أشد التمسك والحرص على مراعـــاة هذا العهد ، ويستأصل خاطر النقض من النفوس مهما غاب شخص الرسول صلى اللـــه عليه وسلم فان الله حاضر لا يغيب والله آخذ فى هذه البيعة ومعطى وهو الرقيـــب عليها العالم بمن يوفى بما عاهد عليه وبالذى ينقض عهده ، ولهذا قال (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) .

والنكث بالكسر : نقض أخلاق الأكسية لتغزل ثانية ، ونكث العهد والحبل ينكثـــــه نقضه فانتكث (٢) .

قال تعالى (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون أيمانكم دخـلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة انما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتـــم

---

(١) سورة النساء الآية رقم ٨

(٢) القاموس المحيط المصدر السابق ج ١ ص ١٨٢ ، والمفردات المصدر السابق ج ١ ص ٥٠٤

فيه تختلفون (١) فنهى الله تعالى عن نقض الميثاق لما فيه من سوء العاقبة على الناقض نفسه ولا يتعدى الى سواه ، فقد وفى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بما عاهدوا الله عليه ، ونصروا رسوله حتى انتشر الاسلام فى أقطار المعمورة ؛ ولهذا ورد الثناء عليهم والتنويه بشأنهم فى القرآن الكريم ، مصرحا فيه برضاء الله عنهم كما سيأتى فى موضعه ، ولهذا أخبر الله تعالى بما أعد للأوفياء من الأجر العظيم والثواب الجزيل .

قال تعالى (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) (٢) ووفى وأوفى أكمل الشئ وأتمه فهو وفى ، ومنه اتمام العهد واكمال الشرط . (٣)

والمراد الوفاء بالعهد مع الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - والثبات عليه وعدم نقضه و (من) شرطية وأوفى فعل الشرط ، وجوابه فسيؤتيه أجرا عظيما ، فى الدنيا بالنصر والغنيمة ، وفى الآخرة الفوز بالجنة وما فيها من نعيم مما لا يخطر على قلب بشر .

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٩٢

(٢) سورة الفتح الآية رقم ١٠

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس جـ ٦ ص ١٢٩

سبب البيعة وتغيير الموقف

ذكرنا في الكلام على الجو الذي نزلت فيه السورة أن قريشا أرسلت وفودا من قبلها محاولة اقناع الرسول — صلى الله عليه وسلم — عدم دخول مكة والرسول صلى الله عليه وسلم قد بين في أول وهلة مقصده الذي جاء من أجله وهو مجرد زيارة البيت للطواف به لأداء مناسك العمرة ، ولكن ذلك لم يفد شيئا مع مشركي مكة فلم يزالوا معه في تعنت رغم ما بذله صلى الله عليه وسلم لاقناع وفود المشركين الذين أرسلوا اليه ، ثم انه صلى الله عليه وسلم لم يكتف بذلك الاقناع بل أرسل من طرفه من يتصل بزعماء المشركين ويخبرهم عن قصده الذي جاء له فأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه لكي يفهّم كبار القوم كأبي سفيان بمقصده ايثارا من الرسول صلى الله عليه وسلم للسلم على الحرب ، ومحافظة على حرمة البيت وعدم السفك في الحرم .

فقام عثمان بابلاغهم مقصد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم انما جاءوا عمارا وزوارا لهذا البيت ، وأن معهم الهدى يريدون الطواف ونحر الهدى ثم ينصرفون فقالوا وان لم يرد الا ذلك فلا تتحدث العرب أن محمدا دخل مكة ،

وفي أثناء المفاوضة أصرت قريش على حبس عثمان عندها فبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قتل (١) . فلما لم يعد عثمان وأشيع قتله رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يلجأ الى الحرب والقوة فانهم لا تنفع معهم المسالمة و كيف يسكت

---

(١) سيرة النبي — صلى الله عليه وسلم لابن هشام ج ٣ ص ٧٨٠ طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٧

على قتل رسوله وهو من أعز الناس اليه ؟ رغم ما بذله من عرض المسالمة والصلح .

عند ذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم ــ المسلمين للبيعة ومما قال حينئذ لا نبرح حتى نناجز القوم (١) ، والمراد بالمناجزة المبارزة في الحرب (٢) أي لا نبرح مكاننا حتى نبارز القوم فنقابلهم بالحرب ، فرأى صلى الله عليه وسلم أنه لا تنفع الملاينة معهم وعزم على تغيير الموقف السابق ، فأخذ المسلمون عندئذ يتسابقون الى مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وظهر في هذه البيعة حماس شديد دل على شجاعة المسلمين وقوتهم ، والدافع لذلك الحماس هو قوة ايمانهم ، وعقيدتهم فان العقيدة كلما كانت قوية كان الدافع قويا وكلما ضعفت ضعف الدافع .

وكانت صفة المبايعة لها صور كثيرة ولكن المؤدى واحد في النهاية وهو نصرة الرسول وعدم التخلي عنه ، والنيل من عدوه وعدو المسلمين مهما عظمت شوكتهم ، فمنهم من بايع على الثبات في الحرب ، ومنهم من بايع على الموت ، ومنهم من بايع على أن لا يفر مهما كلفهم ذلك من الثمن ، ولو أدى الى مفارقة الدنيا ، فبايع كل الصحابة الا ما كان من الجد بن قيس الذي استتر وراء راحلته ولم يبايع كما في حديث جابر ابن عبد الله (٣) .

روى البخاري في الصحيح بسنده عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حين سئل على ما بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فقال على الموت .

---

(١) سيرة ابن ~~نفس~~ هشام المصدر ج ٣ ص ٧٨٠ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٢
(٢) النهاية لابن الأثير المصدر السابق ج ٥ ص ٢١
(٣) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٣٩ ومسند احمد مع ترتيبه للساعاتي ج ٢١ ص ١٠٧
والسيرة النبوية ج ٣ ص ٧٨١

وروى البخارى أيضا عن نافع عن ابن عمر أنهم بايعوا يوم الحديبية على الصبر. (١)

وأخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: لم نبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت وانما بايعناه على أن لا نفر (٢) .

وأخرج الترمذى أيضا حديث سلمة بن الأكوع أنهم بايعوا على الموت ، وكذلك أخرج حديث جابر أنهم بايعوا يوم الحديبية على أن لا يفروا ، (٣)

وأخرجهما الامام أحمد فى المسند عن جابر وعن سلمة (٤) قال الترمذى فى الجمع بين الحديثين ومعنى كلا الحديثين صحيح فقد بايع قوم من أصحابه على الموت وانما قالوا لا نزال بين يديك ما لم نقتل ، وبايع آخرون فقالوا لا نفر .

قال ابن حجر: وحاصل الجمع أن من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها لأنه اذا بايع على أن لا يفر لزم من ذلك أن يثبت ، والذى يثبت اما أن يغلب واما أن يؤسر ، والذى يؤسر اما أن ينجو واما أن يمت ، ولما كان الموت لا يؤمن فى مثل ذلك أطلقه الراوى ، قال: وحاصله أن أحدهما حكى صورة البيعة والآخر حكى ما تئول اليه (٥) .

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ٦١ ط الشعب ١٣٧٨ هـ
(٢) صحيح مسلم باب استحباب مبايعة الامام عند ارادة القتال ج ٢ ص ١٣٨
(٣) جامع الترمذى مع شرحه للمبارك فورى ج ٥ ص ٢١٧
(٤) مسند الامام احمد المصدر السابق ج ٢١ ص ١٠٧
(٥) فتح البارى ج ٧ ص ٤٥٠

وما رواه البخاري عن ابن عمر أنهم بايعوا على الصبر يجمع بين رواية ابن الأكوع ورواية جابر لأن الذي يبايع على الصبر في القتال كأنه بايع على أن لا يفر وعدم الفرار مستلزم للثبات المؤدي الى النصر أو الشهادة في سبيل الله والله تعالى أعلم .

وبعد ما تم أمر البيعة ولم يرجع عثمان فقد بايع عنه الرسول صلى الله عليه وسلم حيث وضع يده على الأخرى قائلا وهذه لعثمان (١) ، فكانت يد الرسول صلى الله عليه وسلم خيرا لعثمان من نفسه ،

ونلاحظ هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد غير موقفه مع المشركين باذلا كل ما في وسعه ليرجع قريشا عن قرارها المتعنت ونجمل هنا جملة ما بذله من المساعي في ذلك بحيث يرضي الطرفين :

١ ـ غير طريقه من عسفان الى الحديبية خشية الاصطدام مع قريش لأنه لم يأت لقتال .

٢ ـ بيّن هدفه لسفراء المشركين أثناء مداولتهم معه ومفاوضتهم اياه .

٣ ـ أمر ببعث الهدي أمام بعض وفود قريش ليعرفوا أنه خرج معتمرا مهديا للبيت لا محاربا .

٤ ـ بين هدفه أيضا بقوله (والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها .

---

(١) صحيح البخاري جـ ٣ ص ٥٤ السيرة النبوية جـ ٣ ص ٧٨١

٥ — عفا عن رجال من قريش أغاروا على المعسكر الاسلامي بعد أن أسرهم المسلمون .

٦ — أرسل من قبله عثمان بن عفان للاتصال بزعمائهم وشرحه لهم موقف الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما لم تستجب قريش لكل هذه المحاولات وبقيت متعنتة ، وزيادة على ذلك أشيع قتلها لسفير رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق سوى الحسم للموقف بالقتال فكانت البيعة التي هي ذروة في السياسة في مثل هذا الموقف فلم تكن هذه لشك منه في وفاء أصحابه وشجاعتهم ، وانما هي لبث الحماس في نفوسهم ، ولارهاب العدو وحتى لا يظن الأعداء أن ما كان من الرسول صلى الله عليه وسلم هو لضعف في جيش المسلمين وعدم قدرته على الحرب ، ولذا نرى قريشا بعد أن بلغها خبر هذه البيعة أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح مع النبي صلى الله عليه وسلم وغير سياستها السابقة ، فبعد أن كانت تتصف بالتعنت تجاه المسلمين بالمسالمة أصبحت هي التي تطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم المصالحة ، انها لسياسة وقّت لها الرسول صلى الله عليه وسلم خير توقيت فجاءت مواتية غير سابقة لأوانها ، ولهذا جاءت بالنتائج العظيمة لصالح الاسلام والمسلمين ، فأصبحت جديرة بأن تسمى فتحا مبينا .

سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم مع المخلفين من الاعراب

عندما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم الخروج الى مكة عام الحديبية دعا الاعراب الذين حول المدينة للخروج معه للعمرة (١) فعل ذلك صلى الله عليه وسلم حتى لا يظن أهل مكة أنه انما خرج للقتال، فاذا علم أهل مكة بهؤلاء القوم الذين خرجوا معه لم يمنعوه من دخول مكة لامور :

١ - ان هؤلاء الاعراب ليس بينهم وبين قريش عداوات تحمل قريشا على صدهم عن البيت .

٢ - ان لكل عربي حقا في الزيارة للبيت الحرام وليس لها أن تمنع من تشاء من ذلك فان فعلت فستكون مهددة من كل العرب ولا طاقة لها بحرب العرب جميعا .

٣ - أن قريشا ان صدت الرسول صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الاعراب معه ستتعرض للوم العرب جميعا على فعلها هذا .

لهذا : دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الاعراب لصحبته في هذا السفر ، ولكن من الاعراب من لم يستجب لهذه الدعوة فتخلفوا عنه ظنا منهم أن قريشا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام المصدر السابق ج ٣

ستقضى على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ، ولكن الله الفاعل لما يريد قد خيب ظنها بأن أرجع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفتح المبين ظافرا موعودا بالغنائم الكثيرة .

فما هو موقف الذين تخلفوا من هذا الفتح والنصر المبين — . ؟

هذا ما ستجيب عنه الآيات الآتية :

قال تعالى (سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرّا أو أراد بكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبيرا (١) . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزيّن ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) (٢) .

فقوله : سيقول لك ، أى اذا رجعت الى المدينة والمخلّفون واحده مخلّف اسم مفعول من خلف ، وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين منه . قال الراغب خلّفته تركته خلفى والخالف المتأخر لنقصان أو قصور كالمتخلف (٣) قال تعالى (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ١١

(٢) سورة الفتح الآية رقم ١٢

(٣) المفردات للراغب المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٧

في سبيل الله (١) والمراد من تخلف عن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا السفر من الاعراب والاعراب بفتح الهمزة هم سكان البادية وأصل الاعراب مشتق من العرب وهم ولد اسماعيل ، والمراد هنا قبائل مزينة وجهينة والديل (٢) وأشجع واسلم وغفار كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد (٣) .

قوله (شغلتنا أموالنا وأهلونا) أي عن الخروج معك يريدون أن سبب تأخرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم هو الاشتغال باصلاح الأموال والقيام بواجبات الاهل فحسب لا معصية للنبي صلى الله عليه وسلم ولا خوفا من العاقبة التي يجرها الذهاب معك (فاستغفر لنا) اى اطلب من الله ان يغفر لنا ذنوبنا وخطيئتنا في تخلفنا عنك ، هذا عذرهم الذي سيقولونه ولكن الحقيقة انهم كما قال الله تعالى (يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم) اى ان العذر الذي اعتذروا به ليس صحيحا بل انه خلاف الواقع وخلاف الذي أضمروه في قلوبهم من المانع الحقيقي لهم عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم وانما قالوا هذا نفاقا ومصانعة وتقية كما هي عادة المنافقين في انتحال الأعذار الكاذبة فأعذارهم لا تصلح ان تكون أعذارا وانما هي تعللات باطلة وقد رد الله عليهم بقوله تعالى (قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا) ملكه يملكه ملكا احتواه احتواء قادرا على الاستبداد به (٤)

---

(١) سورة التوبة الاية رقم ٨١

(٢) الديل بكسر الدال وسكون الياء ، اللباب في تهذيب الانساب لابن الاثير الجزري جـ ١ ص ٥٢٤

(٣) تفسير ابن جرير الطبري جـ ٢٦ ص ٩ ٤ والكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ٥٤٣

(٤) القاموس المحيط جـ ٣ ص ٣٣٠

والضر بالفتح والضم ، ضد النفع ، أو بالفتح مصدر ، وبالضم اسم ضره والضر سوء الحال (١) والنفع مايستعان به فى الوصول الى الخيرات وما يتوصل به الى الخير فهو خير فالنفع خير وضده الضر ، والمعنى أن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمخلفين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة أنه لا أحد يدفع عنهم ما نزل بهم من سوء الحال فى النفس أو الأهل أو المال اذا أراد الله ايصاله اليهم ولا أحد يستطيع أن يوصل اليهم أى خير ينتفعون منه اذا أراد الله منعه عنهم وعدم وصوله اليهم ، فلا ضار الا هو ولا نافع الا هو .

النفع والضر من تلقاء خالقنا .. فما لدى غيره نفع ولا ضرر

وتقديم الضر على النفع فى الآية يفيد أن سبب تخلفهم هو خوف الضر الذى كانوا يتوقعونه فى حال خروجهم مع المسلمين ، فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما قدره لهم فى سابق أزله سواء خرجوا أم تخلفوا ، ولهذا جاء تذييل الآية بما تشم منه رائحة التهديد والتوبيخ فقال تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيرا) (٢) وبل فى الآية للاضراب الانتقالى أى ليس الامر كما زعمتم من أن سبب تخلفكم ما أبديتموه بل كان الله عليما بدقائق أعمالكم وخفاياها فهو محيط بجميع ما تعملونه من الأعمال التى من جملتها تخلفكم فعلم أن الحامل لكم على التخلف هو الشك والنفاق وعدم الثقة بالله سبحانه وتعالى فيجازيكم على قصدكم الفاسد ، ثم بين الله تعالى

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٧٧

(٢) سورة الفتح الآية رقم ١١

السبب في تخلف المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرح به ليفضحهم ويبين حقيقة أمرهم فقال: تعالى: (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا (١)) بل للاضراب الانتقالي أي ليس الأمر كما تزعمون أن سبب تخلفكم هو رعاية أهليكم ومالكم مع أن هذا ليس عذرا مقبولا على فرض تسليمه اذ لو كان مقبولا لما خرج أحد في سبيل الله لأن أغلب الناس له مال ولا يخلو أحد من أن تكون له قرابات وأهلون .

والظن يطلق ثلاثة اطلاقات :

١ — الظن بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى : اني ظننت أني ملاق حسابيه . (٢)
يعني أيقنت .

٢ — يأتي الظن بمعنى الشك ومنه قوله تعالى (واذا قيل انّ وعد الله والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين (٣)
أي ان نشك الا شكا .

٣ — الوجه الثالث الذي يرد الظن بمعناه التهمة ومنه قوله تعالى :
(وما هو على الغيب بظنين) (٤) أي بمعنى أنه غير متهم (٥) والمراد بظن

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ١٢
(٢) سورة الحاقة الآية رقم ٢
(٣) الجاثية الآية رقم ٣٢
(٤) التكوير الآية رقم ٢٤
(٥) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم مقاتل بن سليمان المتوفى ٥٠ هـ ط القاهرة ١٣٩٥ تحقيق عبدالله محمود شحاته ص٣٢٧

المخلفين هنا هو المعنى الأول الذى هو اليقين لأنهم جزموا به واعتقدوا وقوعه بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا محالة .

وقد خيب الله ظنهم الخبيث فلله الحمد والمنة . ولهذا قال تعالى (وظننتم أن لن ينقلب) والتعبير بلن يفيد التأكيد للنفى أى لن يعود هو وأصحابه الى أهليهم أبدا ، عبارة عن مدة الزمن الممتد الذى لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان (١) قال تعالى : فى حق الكفار فى كثير من الآيات (خالدين فيها أبدا) أى زمنا لا نهاية له ، والأبد محركة الدهر والجمع آباد وأبود الدائم يقال : لا آتيه أبد الآبدين (٢) وقد قال المنافقون : يذهب محمد ومن معه وهم أكلة رأس (٣) ويدخل على قوم فى دارهم وقد غزوه فى عقر داره "المدينة" وقتلوا أصحابه يعنون بذلك — غزوة أحد — والأحزاب — انهم ان يذهبوا اليهم فى مكة سيستأصلون ولا يرجع منهم مخبر الى المدينة (٤) وهذا هو ما وسوس به اليهم الشيطان وخذلهم به وزينه لهم ولذا تخلفوا عن الخروج ومعنى زين — أى حسن — (ذلك) مرجع الاشارة الى الظن المفهوم من ظننتم والمزين لهم هو الشيطان أى حسّن لهم ذلك الظن حتى اطمأنت اليه قلوبهم فرأوا أنه لا بد من وقوعه وأنه هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية (وظننتم ظن السوء) أى الظن السابق ذكره وهو زعمهم أن لن يرجع

---

(١) المفردات المصدر السابق ج ١ ص ٨
(٢) القاموس المصدر السابق ج ١ ص ٢٨
(٣) أى لا يزيدون عن عدد أكلة رأس الجزور عبارة عن قلتهم
(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ج ٦ ص ٧٦ والكشاف المصدر السابق ج ٣ ص ٥٤٣

الرسول والمؤمنون الى المدينة فالتعريف فيه للعهد الذكرى وأعيد لشدة التوبيخ وتسجيل السوء عليهم أو السوء يطلق لعدة معان حصرها مقاتل فى أحد عشر وجها منها :

١ — شدة العذاب كقوله تعالى (يسومونكم سوء العذاب (١)) يعنى شدة العذاب ونحوها من الآيات ويأتى مرادا به الزنا ومنه قوله تعالى (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) (٢) وقوله تعالى (ما علمنا عليه من سوء (٣)) .

٢ — ومن معانى السوء الشرك كقوله تعالى(الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء (٤) أى ما كنا نعمل من سوء أى شرك

٣ — ويأتى مرادا به الشتم ومنه قوله تعالى (ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) (٥) يعنى بالسوء هنا السب والشتم . ومثل قوله تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم (٦) يعنى بالسوء هنا الشتم .

٤ — ويطلق السوء ويراد به الضر ومنه قوله تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) (٧) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٩
(٢) سورة يوسف الاية رقم ٢٥
(٣) سورة يوسف الاية رقم ٥١
(٤) النحل الاية رقم ٢٨
(٥) سورة الممتحنة الاية رقم ٢
(٦) سورة النساء الاية رقم ١٤٨
(٧) سورة الأعراف الاية رقم ١٨٨

٥ — ويأتي مرادا به القتل والهزيمة ومثاله قوله تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا (١) يعنى بالسوء هنا القتل والهزيمة .

وهذا المعنى مما ظنه أولئك المخلفون تجاه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه عند ذهابهم الى مكة ، فان المخلفين ظنوا أن المسلمين سيقتلون وأنه لن يرجع منهم أحد ، ولذلك تخلفوا حتى لا يصيبهم ما اعتقدوا أنه سيصيب المسلمين

قال تعالى : (وكنتم قوما بورا) والبور الفساد والهلاك . يقال بار الشيء يبور بورا وبؤرا اذا هلك وفسد ، والواحد منه بائر ويكون مصدرا ، ويوصف به الواحد والجمع يقال رجل بور وقوم بور ، قال الله تعالى (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (٢)) أى هلكى وقال تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور (٣)) أى تهلك ، قوله تعالى (وكنتم قوما بورا) (٤) أى وصرتم فى علم الله الأزلى قوما هالكين بسبب ذلك الظن أو بجميع ظنونكم الفاسدة نحو الاسلام وأهله ، ويجوز أن يكون دعاء عليهم بالهلاك ، وجاء عن مقاتل (٥) أن هذه اللفظة فى القرآن كل ما ورد منها فهو بمعنى الهلاك ، كقوله تعالى (دار البوار) (وقوما بورا) (وتجارة لن تبور) قوله

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ١٣
(٢) سورة الفرقان الآية رقم ١٨
(٣) سورة فاطر الآية رقم ٢٩
(٤) سورة محمد الآية رقم
(٥) مقدمة كتاب الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم ص ٦١

تعالى (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيرا) (١) أى ومن لم يصدّق بالله ويمتثل أمر رسوله ، ويصدّق بأنّ ما جاء به هو الحق ، سواء منكم أيها الاعراب أم من غيركم فانّا هيأنا للكافرين بالله ورسوله نارا تسعر عليهم يوم القيامة بعد دخولهم اياها .

وفيه تهديد شديد للمخلفين عن النبى - صلى الله عليه وسلم - والتعبير بالكاف فى قوله (أعتدنا للكافرين سعيرا) يشعر بدخولهم فى اعداد الكافرين لما قاموا به من المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما يستفاد من الآية أن من لم يجمع بين الايمان بالله ورسوله أنه غير مؤمن وأنه كافر . والتنكير لقوله (سعيرا) أفاد التهويل أو أن السبب فى التنكير أنها مخصوصة كالتنكير فى لظى (٢) ومعنى سعيرا أى مستعرة يقال سعرت النار اذا أوقدتها فانا أسعرها سعيرا ، ويقال سعرتها اذا حركتها وانما يقال للمسعر مسعر لأنه يحرك النار ، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم لابى بصير (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد) أى موقدها ومهيجها .

(ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) (٣) أى هو المتصرف التصرف المطلق أمرا ونهيا فلا أحد يقدر على منعه مما يريد ايصاله

---

(١) سورة الفتح آية ١٣

(٢) الزمخشرى جـ٣ ص ٥٤٤

(٣) سورة الفتح الآية رقم ١٤٠

من الخير للمؤمنين ولا أحد كذلك يستطيع دفع ما قدره الله على عباده من العقاب والجزاء العادل الذي يكون من جنس العمل فهو سبحانه الغنيّ الغني المطلق عن عباده وانما ابتلاهم بالتكليف وتعبّدهم بما تعبّدهم به ليثيب من امتثل ويعاقب العاصي فهو سبحانه المتصرف وحده في ملكه كيف يشاء سبحانه ولهذا قال تعالى (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) أي يغفر لمن يشاء أن يغفر له برحمته وعفوه ، ويعذب من يشاء أن يعذبه بعدله وحكمته فهو سبحانه وتعالى يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحا ، كما أنه يغفر كل ذنب لمن يشاء غير الشرك قال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١) وقوله (وكان الله غفورا رحيما) كثير المغفرة والرحمة مبالغا فيهما ٠

وفيه حث لهؤلاء المخلفين على المبادرة بالتوبة والرجوع الى الله تعالى والى طاعة رسوله — صلى الله عليه وسلم — فيما يأمرهم به ، وينهاهم عنه ، فمن تاب ورجع الى الله فان الله يقبل توبته ويغفر له اذا علم منه الصدق والاخلاص والنصح لله ورسوله ٠

قوله تعالى (سيقول المخلّفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتّبعونا كذالكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا) (٢) ٠

---

(١) سورة النساء الآية رقم ٤٨
(٢) سورة الفتح الآية رقم ١٥

المراد بالمخلفين هم الذين تخلفوا عن النبي عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى مكة عام الحديبية خوفا على أنفسهم من الموت أو الأسر ، وقد سبق بيان الحامل لهم على التخلف وفضح القرآن لهم .

قوله تعالى (اذا انطلقتم) اذا ظرف تضمن معنى الشرط متعلق بـ (سيقول) وانطلقتم أي سرتم ، يقال انطلق الرجل ينطلق انطلاقا والمعنى (سيقول المخلفون عند وقت انطلاقكم ومسيركم (الى مغانم) جمع غنيمة ، وأصل الغنم اصابة ما يظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدو وغيرهم (١)

(ذرونا) اتركونا لنذهب معكم ونحوز من الغنائم التي ستأخذونها عند قتال أهل خيبر والانتصار عليهم ، وقد وعد الله المؤمنين ممن حضر الحديبية بغنائم خيبر لا يشاركهم فيها أحد . وأغلب المفسرين وأهل السير على هذا من أن غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة ، والظاهر أنهم أخذوا ذلك من قوله تعالى في الآية (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها) وهذا وعد من الله تعالى لأهل الحديبية بأنهم سيذهبون الى مغانم يأخذونها ، وأن الخطاب في الآية موجه اليهم وهو أصح دليل في المسألة ، وأن المقصود بالغنائم هنا غنائم خيبر .

وهذا الذي عليه الجمهور ، بدليل أنها أول غزوة يحصل فيها النصر والغنيمة بعد

---

(١) مفردات القرآن للراغب جـ ١ ص ٣٦٦

الحديبية ، كما أن من الأدلة على أن الغنائم هى غنائم خيبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قسم غنائم خيبر على أهل الحديبية خاصة دون من سواهم من حضرها منهم ومن لم يحضر - يعنى خيبر - روى الامام احمد قال :

حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا اسحاق بن عيسى قال حدثنا مجمع بن يعقوب قال : سمعت أبى يقول : عن عمه عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مجمع بن جارية الانصارى رضى الله عنه قال : قسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد الا من شهد الحديبية فقسمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم على ثمانية عشر سهما ، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما (١)

فالشاهد هنا قوله : قسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد ، ورواه أبو داود عن مجمع (٢) بن جارية أيضا .

وقد خولف مجمع فى هذه الرواية ، ففى رواية جابر وأهل المغازى أنهم كانوا ألفا وأربعمائة وهم أهل الحديبية ، وهذه أرجح الروايات فى عدد أهل الحديبية . (٣)

قال ابن جرير فى تأويل هذه الآية : يقول الله تعالى جل ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سيقول لك يا محمد المخلفون فى أهليهم عن صحبتك اذا سرت معتمرا تريد

---

(١) مسند احمد مع ترتيبه للساعاتى جـ ١٤ ص ٧٩

(٢) مجمع بميم مضمومة بعدها جيم مفتوحة ثم ميم مكسورة ومشددة بعدها عين على وزن مبشر بن جارية الانصارى أحد القرّاء الذين قرأوا القرآن . سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود جـ ٧ ص ٤٠٥ باب فيمن أسهم له سهما

(٣) الفتح الربانى شرح مسند الامام احمد الشيبانى للساعاتى جـ ١٤ ص ٧٩

بيت الله الحرام ، اذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك الى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة لتأخذوها ، وذلك ما كان الله وعد به أهل الحديبية من غنائم خيبر .

قوله : (ذرونا نتّبعكم) الى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها (١) قال تعالى : (يريدون أن يبدّلوا كلام الله) أي يريدون أن يغيّروا ، والمراد بكلام الله هنا :

١ — قيل ما وعد به أهل الحديبية من كون الغنائم خاصة بهم ، ويجوز أن يكون المراد به قوله (قل لن تتبعونا) وقيل غير ذلك . وعلى كل حال فالمخلفون حينما سمعوا من المؤمنين أن الله وعدهم مغانم كثيرة أبدوا رغبتهم الملحّة في اتباع المؤمنين الى ذلك الموعد رغبة منهم في الانتفاع من الغنائم لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأوامر من القيادة السماوية العليا بمنع أولئك المخلفين عن الخروج معه ، فكان الجواب مهيئا ومعدّا لهم قبل ابداء رغبتهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى (قل لن تتبعونا) تقنيطا لهم وسدا للباب في وجوههم ، (كذلك قال الله من قبل) يعني أن الأمر بعدم الاتباع للمسلمين هو وحي من الله وهو قوله فأنتم ممنوعون بأمر الله تعالى من قبل أن تطلبوا منا ذلك بل ان منعكم كان في سابق أزله ، وقبل الوصول الى المدينة فهذا هو حكم الله فيكم وهذه سنته التي سنها نحوكم (ولن تجد لسنة الله تحويلا .)

فماذا كان جواب المخلفين ؟ وموقفهم بعد هذا المنع أخبر الله تعالى به قبل

---

(١) تفسير الطبري ج ٢٦ ص ٥٠

أن يتكلموا به ، لأنه العالم بما يكنه الصدور ، (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور) (١) فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء فأخبر عنهم أنهم سيقولون (بل تحسدوننا) وبل هنا للاضراب عما قاله المؤمنون من منع المخلفين واثبات الحسد لهم ، أى ليس هذا الحكم حكم الله وأمره ، بل انكم تحسدوننا أن نأخذ معكم شيئا من الغنائم فالحامل لكم على منعنا هو الحسد لنا ، والحسد هو تمنى المرء زوال النعمة عن الغير وربما كان الحاسد يسعى فى زوالها عن الغير ، قال الناظم (٢) :

وارسم بحبك زوال النعمة .. عن غيرك الحسد تحسن رسمه
أما اذا كنت مخافة الحمد .. عنها تصدك فلست ذا حسد

فهم يرون أن لهم حقا فى المشاركة فى الغنائم المذكورة فلما منعوا مما اعتقدوه حقا لهم اتهموا المسلمين بالحسد ونسبوه اليهم لأنهم نفذوا فيهم أمر الله وحكمه فنفى الله عنهم الفهم المفضى عدمه الى الجهل فقال تعالى (بل كانوا لا يفقهون الا قليلا) (٣)

والفقه هو التوصل الى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص من العلم قال تعالى (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) (٤) .

---

(١) سورة هود الآية رقم ٥

(٢) صاحب النظم هو العالم العلامة الحبر الفهامة محمد مولود الشنقيطى فى كتابه مطهرة القلوب من قترات العيوب

(٣) سورة الفتح الآية رقم ١٥

(٤) سورة النساء الآية رقم ٧٨

والفقه : فى اصطلاح الشرع هو العلم بأحكام الشريعة يقال فقه الرجل فقها اذا صار فقيها ، وفقه (١) بالكسر فهم المسألة قوله : (قليلا) صفة لمصدر محذوف تقدير الكلام أى لا يفقهون الا فقها قليلا يعنى أنهم لا يفهمون من الدين الا قدر مايظهرونه لأعين الناس نفاقا منهم ، ومقتضى ذلك أن ما نسبوه للمسلمين هو ناشئ من قلة فهمهم وكثرة جهلهم ، وفيه اشعار بأن ما وصفوا به المسلمين لا يقوم على أساس من الصحة لأنه صادر عن جهل وعدم فهم ، فهم لا يقيسون الأمور الا بمقياسهم النفعى العاجل ولا يزنونها الا بما يشاهدونه أو يحسونه من المنافع العاجلة فهم بالأمس يتخلفون لما يظنون ويتوهمون من الخطر الذى سيلقاه المسلمون عند لا مواجهتهم أهل مكة ، واليوم وقد سمعوا ما سيأخذه المجاهدون من المغنم يبادرون بالطلب لينتظموا فى سلك المجاهدين ، فهذه عادة المنافقين يقلون عند الفزع ويكثرون عند الطمع .

---

(١) المفردات جـ ١ ص ٣٨٤

اختبار المخلفين وابتلاؤهم

قال تعالى (قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) (١) .

المراد بالمخلفين هنا هم الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى عمرة الحديبية من أعراب القبائل التى مر ذكرها ، وتكرار ذكرهم بهذا الوصف (المخلفين) يفيد ذمهم والتنديد بهم ، لعظم ما ارتكبوا من تثبيط المسلمين وعدم النفرة معهم عندما دعوا الى ذلك .

قوله تعالى (ستدعون) التعبير بالسين والتاء يدل على الاستقبال كما هنا لأن نزول السورة متقدم عن هذا ، وتدعون تطلبون (الى قوم أولى بأس شديد) أصحاب قوة وشدة فى الحروب ، (تقاتلونهم أو يسلمون) أى يكون أحد الأمرين ، اما المقاتلة حتى النصر عليهم وكسر شوكتهم ، أو الاسلام بالدخول فيه طائعين .

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ١٦

الاختلاف فى المراد بالقوم أولى البأس

اختلفت الاقوال حول المراد بهؤلاء القوم أولى البأس الشديد من هم ؟

١ - القول الأول : أنهم هوازن وثقيف الذين حاربهم النبى صلى الله عليه وسلم فى حنين والطائف .
روى هذا القول ابن جرير الطبرى عن سعيد بن جبير وعكرمة ، وبه قال قتادة (١) .وذكره ابن كثير (٢) فى تفسيره وقواه الخازن . (٣)

٢ - القول الثانى : أنهم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب الذين حاربهم أبوبكر الصديق رضى الله عنه أيام خلافته عندما ارتدوا عن الاسلام ذكره ابن جرير عن الزهرى ورواية عن سعيد وعكرمة وذكره ايضا ابن كثير عن جويبر ، وهذا القول قال به الزمخشرى . (٤)

٣ - القول الثالث : إنهم فارس والروم الذين قاتلهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبه قال الحسن وعطاء ورواية عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد . (٥)

(١) ابن جرير جـ ٢٦ ص ٥٢
(٢) ابن كثير فى تفسيره جـ ٤ ص ١٩٠
(٣) الخازن فى التفسير جـ ٦ ص ١٩٤
(٤) الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٥
(٥) تفسير الطبرى المصدر السابق جـ ٢١ ص ٥٢ وابن كثير جـ ٤ ص ١٩٠

٤ - القول الرابع : أنهم فارس قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة ومجاهد (١) .
ولعل الأولى بالصواب أن المراد هو عموم مدلول الآية لانها لم تعين قوما دون قوم ، ولم يرد نص بخصوص طائفة معينة ، وهذا القول الذى رجحته قد مال الى ترجيحه الطبرى فى تفسيره حيث قال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : ان الله تعالى جل ذكره أخبر عن هؤلاء المخلفين من الاعراب أنهم سيدعون الى قتال قوم أولى بأس فى القتال ونجدة فى الحروب ، ولم يوضع لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعنى بذلك هوازن ولا بنوحنيفة ، ولا فارس ولا الروم ولا أعيانا بأعيانهم ، وجائز أن يكون عنى بذلك بعض هذه الأجناس وجائز أن يكون عنى بهم غيرهم ، ولا قول أصح من أن يقال : كما قال الله جل ثناؤه أنهم سيدعون الى قوم أولى بأس شديد (٢)

وكما اختلف العلماء فى تعيين القوم أولى البأس الشديد ، فقد اختلفوا فى بيان الداعى الى هؤلاء المخلفين ، فقيل : ان الداعى هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

دعا الأعراب ومعهم هؤلاء المخلفين الى قتال هوازن وثقيف فى غزوة حنين والطائف . وقيل : ان الداعى لهم هو أبوبكر الصديق دعاهم الى قتال أهل الردة عموما ، وقيل الداعى عمربن الخطاب رضى الله عنه دعاهم الى قتال فارس

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٩٠ وابن جرير ١٢٦ ص ٥٢
(٢) ابن جرير نفس المصدر جـ ٢٦ ص ٥٢

والروم . قال في الكشاف (١) : وفي هذا دليل على صحة خلافة أبي بكر رضي الله عنه والأولى حمل الداعي على العموم ، كما سبق ترجيحه في عموم القوم أولي البأس الشديد . ويرد على قول من قال : ان الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (قل لن تتبعونا) فقد وجه الزمخشري هذا القول الذي قال به قتادة وغيره من أن الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ان صح ذلك فالمعنى لن تخرجوا معي أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم الا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم (٢) .

وأما قوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) فالظاهر من الآية أحد أمرين اما القتال أو الدخول في الاسلام ، وهذا موافق لمن رأى أن الداعي الى القتال المذكور هو الرسول صلى الله عليه وسلم لانه جاهد المشركين من العرب وهم لا تقبل منهم الجزية ، بل انما هو الاسلام أو القتال على رأى الجمهور ،

وأما اذا كان المراد بأولي البأس الشديد فارس والروم ، فالمراد (أو يسلمون) أي ينقادون والانقياد يحتمل الدخول في الاسلام ، أو الخضوع باعطاء الجزيـــة لان فارس والروم قبل منهما الجزية ، وأو هنا بمعنى ، الا أي الا أن يسلمـــوا وبهذا التوجيه يزول التعارض بين ما يفهم من ظاهر الآية ، وبين قول الجمهور من أن غير مشركي العرب مخيرون بين أمور ثلاثة :

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٥

(٢) الكشاف نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٤٥

١ - الاسلام ٢ - دفع الجزية ٣ - القتال

ووجه ارتباط الآية بما قبلها أن المخلفين لما أبدوا رغبتهم في الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعا في الغنائم، أراد الله تعالى امتحانهم واختبارهم بجنس ما طلبوه من الجهاد في سبيل الله والخروج مع رسول الله والمؤمنين ليتحقق لكل راء وسامع مدى صدقهم واخلاصهم فيما قالوا وطلبوا فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أنهم سيبتلون بدعوتهم الى قوم أهل قوة وبأس شديد في الحروب وخبرة ونجدة يقاتلونهم فينتصرون عليهم أو يسلمون فاذا كانوا صادقين في دعواهم في طلب الخروج والغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين وأنهم مخلصون فيما قالوا أجابوا الداعي الى الجهاد في سبيل الله وأخلصوا العمل لله عز وجل كان لهم الاجر العظيم والثواب الجسيم في الدنيا والآخرة، لطاعتهم واخلاصهم، وان عصوا وجبنوا وتخلفوا كما هي عادة المنافقين وطبيعتهم، في الجبن والكذب وانتحال الاعذار الكاذبة ظهر للناس فشلهم وخورهم، واستحقوا بذلك العقاب المؤلم في الدنيا والآخرة كما هي سنة الله في ثواب المطيعين، وعقاب العصاة المتمردين.

ولهذا ختم الله الآية بقوله: (فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما (١)

ومعنى تتولوا تعرضوا عن أمر الله ورسوله، (كما توليتم من قبل) أي كتوليكم يوم دعيتم الى الخروج زمن الحديبية.

---

(١) سورة الفتح آية ١٧

رفع الحرج عن ذوى الأعذار الصحيحة

قال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما) (١) .

بعد ما بين الله سبحانه شناعة التخلف وذمه وتوعد على ذلك بالعذاب المؤلم ذكر بعد ذلك أهل الاعذار مستثنيا لهم من عموم من تخلف ورافعا بذلك عنهم الحرج فى تخلفهم عن الجهاد ، لأن السامع أول الأمر يفهم أن الوعيد لكل متخلف حتى أصحاب الاعذار الشرعية التى ليست كأعذار أهل النفاق الذين اعتذروا بالاشتغال فى الأموال والأهل ، وقد ذكر القرطبى -رحمه الله- عن ابن عباس قال : لما نزلت (وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) قال : أهل الزمانة (٢) كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج) (٣) والأعمى هو الذى ذهب بصره وهو عذر ملازم لصاحبه ،

والحرج فى الأصل تجمع الشىء وضيقه ومنه الحرج جمع حرجة وهى مجتمع الشجر ويقال فى جمعه حرجات ومن ذلك الحرج الذى هو الاثم (٣) وهو المراد

(١) من سورة الفتح رقم الآية ١٧
(٢) أهل العاهة وأصله زمن كفرح زمنا وزمنة بالضم وزمانة فهو زمن وزمين جمعه زمنون وزمنى ، القاموس ج ٤ ص ٢٣
(٣) تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢٧٢
(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٢ ص٥٠ ط الثانية ١٣٨٩

هنا ،قال فى القاموس (١) : الحرج محركة المكان الضيق الكثير الشجر كالحرج ككتف والاثم كالحرج بالكسر ،والحرج محركة ما يصاب به الانسان فى رجله أو رجليه ، فان كان خلقه فيه فيكون الفعل فيه من باب فرح ،وأما ما لم يكن فى خلقته فالفعل فيه مثلث هكذا ذكر القاموس. (٢)

والمريض فى الشرع من أصابه مايمنعه من القيام بالواجبات كلها أو بعضها وأصبح معذورا من قبل الشرع ولا اثم عليه ،وأما فى اللغة فهو ،اظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها واعتدالها ،يقال مرض كفرح مرضا ومرضا فهو مرض ومريض ومارض جمعه مراض ومرضى ومراضى ،أو المرض بالفتح للقلب خاصة وبالتحريك أو كلاهما الشك والنفاق والفتور والظلمة والنقصان وأمرضه جعله مريضا ،وقارب الاصابة فى رأيه وصار ذا مرض ووجده مريضا ،والتمريض التوهين وحسن القيام على المريض (٣) .

فهؤلاء الأصناف الثلاثة المذكورون فى الآية الكريمة المتقدمة الذكر ،قد عذرهم الله عز وجل عن الغزو لما قام بهم من الأسباب التى لا يتمكنون معها من الجهاد والخروج فى سبيل الله ،فمن أصيب بشىء من هذه الاعذار المذكورة ،وتخلف عن الخروج للجهاد فقد رفع عنه الحرج والاثم ،وقد قدم الله تعالى ذكر الاعمى والاعرج على المريض لأن العمى والعرج فى الغالب مستمران لمن أصيب بهما ،وأخر ذكر المريض لأن المرض

---

(١) القاموس المصدر السابق ج ١ ص ١٨٩
(٢) القاموس ج ١ ص ٢٠٦
(٣) القاموس نفس المصدر ج ٢ ص ٣٥٧

قد يزول عن صاحبه ، وحين يزول عنه يتوجه اليه الخطاب في لزوم الخروج الى الجهاد كغيره من باقي المسلمين القادرين ، فاذا حصل من هؤلاء المعذورين اخلاص النية لله ولرسوله فانهم يشاركون الخارجين الى الجهاد في الأجر والثواب ، فان الله سبحانه وتعالى لا يحرمهم من فضله اذا علم منهم صدق الايمان والعزم على الامتثال والنصح لله ورسوله ، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى غير هؤلاء الثلاثة معلنا عذره لهم وأنه لا حرج عليهم. في غير هذه السورة كالذين لا يجدون مؤنة الخروج من الزاد والراحلة قال تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم (١) ولا على الذين اذا ماأتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون) (٢) .

فقد أكرم الله سبحانه وتعالى هؤلاء الضعفاء وأهل الاعذار حيث جعل لهم نصيبا في الأجر والثواب ، فقد روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال : ان بالمدينة أقواما ماسرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر) (٣) .

ورواه أبو داود في السنن (٤) ، ومعنى قوله (الا كانوا معكم) أي في الأجر

(١) سورة التوبة الآية رقم ٩١
(٢) سورة التوبة الآية رقم ٩٢
(٣) صحيح البخاري جـ ٨ ص ١٢٦
(٤) سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود جـ ٧ ص ١٨٥

والثواب لانهم ما منعهم من الخروج الا مجرد العذر ، وقد اختلف العلماء في مساواة أهل الاعذار بمن خرجوا هل يساوونهم في الاجر والثواب مثلا بمثل أم ان أهل الاعذار وان كان لهم أجر الا أن أجرهم وثوابهم ناقص عن الذين خرجوا ؟

فقال بعضهم : انهم يعطون أجر المجاهدين سواء بسواء ، وهذا هو ظاهر النظم القرآني قال تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما (١)

قال ابن كثير : رحمه الله - في معنى قوله (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) كان مطلقا فلما نزل بوحي سريع (غير أولى الضرر) صار ذلك مخرجا لذوى الاعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض (٢) .

قال القرطبي : بعد أن ذكر الحديث السابق ، حديث البخاري : هذا يقتضى أن صاحب العذر يعطى أجر الغازي فقيل يحتمل أن يكون أجره مساويا وفي فضل الله متسع وثوابه يعطيه تفضلا منه على عباده ، لا استحقاق لاحد عليه سبحانه وتعالى فيثيب على النية الصادقة مالا يثيب على الفعل ، وقيل يعطى أجره من غير تضعيف فيفضله الغازي بالتضعيف ، للمباشرة التي حصلت منه الى أن قال : قلت : والاول أصح ان شاء الله للحديث الصحيح " ان بالمدينة أقواما ... الحديث .

---

(١) سورة النساء الآيتان رقم ٩٥ - ٩٦

(٢) ابن كثير في تفسير ج ١ ص ٥٤١

ولحديث اذا مرض العبد قال الله تعالى (اكتبوا لعبدى ما كان يعمله في الصحة الى أن يبرأ أوأقبضه الىّ (١) وهذا هو الارجح لظاهر الآيـــة والأحاديث الصحيحة ، لأن أهل الاعذار مستثنون من المؤمنين القاعديـــن فيكونون مساوين للمجاهدين في الأجر والثواب ، والمعنى لا يستوى القاعدون من غير ضرر والمجاهدون . أما أولى الضرر فمساوون للمجاهدين ، فدلت الآية والأحاديث على مساواتهم للمجاهدين في مثل الأجر ، والله تعالى أعلم ، ثم هل يؤخذ من نفى الحرج عن أولى الضرر والاعذار نهيهم عن الخروج الى الجهاد على حسب حالهم ؟

والذى يظهر أنهم لا يمنعون من الخروج والغزو ، وقد روى ابن اسحاق في السيرة النبوية أن عمرو بن الجموح - رضى الله عنه - كان رجلا أعرج شديد العرج وكان له بنون أربعة ، وأرادوا منعـــه من الخروج في غزوة أحد ، وقالوا له : نحـــن نكفيك وقد وضع الله عنك وكانوا يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهـــد فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ان بنى يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه (٢) والخروج معك فيه فوالله انى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه الجنة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد أعذرك الله فلا جهـــاد عليك وقال لبنيه ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة) فخرج معـــه فقتل يوم أحد (٣)

---

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص٣٤٢ ط بيروت دار الفكر
(٢) الجهة والناحية أى ناحية الغزو معك
(٣) السيرة لابن هشام ج ٣ ص٦٠٧

وعدّه ابن سعد (١) من شهداء أحد . وروى أن ابن أم مكتوم وهو صحابي أعمى قد اشترك في حرب القادسية فكان يمسك الراية في تلك الغزوة وقد استشهد فيها (٢) .

ونقل بعض العلماء (٣) كلاما حسنا في هذا المجال فقال : روى ابن جرير عن أبي راشد أنه رأى المقداد بن الأسود فارس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد الغزو وكان شيخا كبيرا قد سقط حاجباه على عينيه فقال له : لقد أعذر الله اليك فقال : أبت علينا سورة البحوث يريد سورة التوبة التي فيها انفروا خفافا وثقالا فهؤلاء أصحاب النفوس العالية الذين لا يريدون الموت على الفرش ، وانما يريدون الموت في ساحات القتال لينالوا بذلك الشهادة في سبيل الله ، فهذا وما قبله يدل على اباحة خروج المعذورين الى الجهاد عند رغبتهم في ذلك لعل الله يرزقهم الشهادة .

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما) يعني أن من يطع الله ورسوله طاعة عامة في الجهاد وغيره بامتثال الاوامر واجتناب النواهي فجزاؤه أن يدخله الجنات الموصوفة بهذه الاوصاف الجميلة التي من جملتها الانهار التي تجري بحيث يكون ماؤها وما فيها عذب دائما لان وصف الانهار بانها تجري يفيد ذلك ،

---

(١) الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد جـ ٢ ص ٤٣ ط بيروت
(٢) روح المعاني للألوسي جـ ٢٦ ص ١٠٥
(٣) هو الدكتور ابوشهبة في كتابه السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة جـ ٢ ص ٦٤

فلا يمكث فى مكان واحد حتى لا تشمئز منه النفس وتنفر منه بل يظل طيب الرائحة مستلذ الشراب جميل المنظر قال تعالى فى آية أخرى (من ماء غير آسن) والآسن هو الذى لا يتحرك ولا يجرى فنفى عن أنهار الجنة هذا الوصف ، ووصف العذاب بأنه أليم لكونه لا يقادر قدره .

والمعنى بالوعد والوعيد هنا أعم من المعنى بهما فيما سبق كما ينبىء عن ذلك التعبير بمن هنا وبضمير الخطاب هناك ، وقيل فى الوعيد (يعذبه) دون يدخله نارا مع هو أظهر فى المقابلة لقوله (ندخله جنات) فلماذا ؟

والجواب أن ذلك اعتناء بأمره من حيث ان التعذيب يوم القيامة عذابا أليما يستلزم ادخال النار ، وادخالها لا يستلزم ذلك (١) ، والله أعلم .

---

(١) الالوسى فى تفسيره جـ ٢٦ ص ١٠٥

(بيعـــة الرضوان)

قال الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) . (١)
" ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما " (٢)

الرضا : ما يقابل السخط يقال : رضى عنه ورضى به والمراد هنا الأول ويتعدى بنفسه ، ومع عن يدخل على العين لا على المعنى ، ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا وما فى الآية من هذا القسم ، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المبايعة (٣) .

والرضا صفة من صفات الله عز وجل الثابتة له سبحانه على الوجه اللائق بجلاله وعظمته والمراد هنا اخباره تعالى عن رضاه عن المؤمنين المبايعين تحت الشجرة ومن رضى الله عنه فقد فاز فوزا عظيما .

وقد تقدم معنى المبايعة عند قوله تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) والعامل فى " اذ " هو يبايعونك أى رضى عنهم وقت بايعوك والمقام يقتضى التعبير بالماضى أى رضى عن المؤمنين اذ يبايعوك لان نزول السورة بعد الانصراف من الحديبية كما ثبت فى الحديث الصحيح ولكن عبر بالمضارع عن الماضى استحضارا للصورة الماضية وهذا موجود فى القرآن الكريم بكثرة

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ١٨
(٢) سورة الفتح الآية رقم ١٩
(٣) روح المعانى للألوسى جـ ٢٦ ص ١٠٧

كقوله تعالى (وان يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع) (١) مع ما هناك من الزمن بين الفعل والاخبار عنه ، والمراد بالموءمنين فى الآية هم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تحت الشجرة ، والشجرة المذكورة هى شجرة سمرة بايع النبى صلى الله عليه وسلم الموءمنون على مناجزة المشركين تحت ظلها ، وقد خفيت (على الصحابة رضى الله عنهم فيما بعد كما جاء فى حديث ابن عمر عند البخارى وغيره وذلك لحكمة يعلمها الله تعالى وفى ذكرها تحديدا للمكان الذى بايعوا فيه وتشريفا للمبايعين وبيان أن الله عالم ببيعتهم التى رضيها عنهم واشارة الى مزيد وقع تلك البيعة وعظمها فى النفوس وأنها لم تكن عن خوف أو تردد من المبايعين ، ولهذا رضى الله عن أصحاب هذه البيعة الذين باعوا أنفسهم وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت وعدم الفرار ، والصبر على مناجزة الاعداء والدخول معهم فى الحرب ، وذلك قبل أن يعقد الرسول صلى الله عليه وسلم معهم الصلح الذى عقده خيرا وبركة على الاسلام والمسلمين ولله الحمد والمنة .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٢٧

(عدد أصحاب الشجـــرة)

لقد اختلفت الروايات فى عدد أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان ، فقد روى البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كنا يـــــوم الحديبية ألفا وأربعمائة (١) ، وروى مسلم بسند عن أبى الزبير أنه سمع جابرا يسأل كم كانوا يوم الحديبية قال : كنا أربع عشرة مائة .

وروى أيضا عن معقل بن يسار قال : لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة قال : لم نبايع على الموت ولكن على أن لا نفر ،

وروى أيضا مسلم عن جابر أنه سأله سالم بن أبـى الجعد (٢) عن عددهم يوم الحديبية قال : ألفا وأربعمائة ، وأخرج البخارى عن جابر رضى الله عنه قـــال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض وكنـــــا ألفا وأربعمائة . (٣) .

هذه الاحاديث تدل على أن عدد المبايعين ألفا وأربعمائة مقاتل ، وهنـــاك روايات أخرى مخالفة لهذا العدد منها ما أخرجاه عن جابر أنهم ألف وخمسمائة (٤) وفى رواية عند البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما قال : كان أصحاب

---

(١) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٥٥ - ١٥٧ ومسلم جـ ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥

(٢) سالم بن أبى الجعد رافع الغطفانى مولاهم الكوفى ثقة كان يرسل كثيرا مات سنة سبع أوثمان وتسعين ٩٧ التقريب جـ ١ ص ٢٧٩

(٣) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٥٥ - ١٥٧

(٤) البخارى ومسلم المصدران المذكوران آنفا

الشجرة ألفا وثلاثمائة وكانت اسلم ثمن المهاجرين وجمع بين هذه الروايات الثلاث : أى أنهم ألف وأربعمائة، ورواية أنهم ألف وخمسمائة ، ورواية أنهم ألف وثلاثمائة - النووى رحمه الله قال وجه الجمع أنهم كانوا أربعمائة وكسرا - يعنى بعد الألف - فمن قال : أربعمائة لم يعتبر الكسر ، ومن قال : خمسمائة اعتبره . ومن قال : ألفا وثلاثمائة ترك بعضه لكونه لم يتيقن العد أو لغير ذلك (١) .

وبهذا الجمع جمع ابن حجر فى الفتح وهو جمع لائق بين هذه الروايات الصحيحة . ونقل عن البيهقى أنه مال الى الترجيح وقال : ان رواية ألف وأربعمائة أصح (٢) .

وأما الرواية التى ذكرها ابن اسحاق بسنده عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهم سبعمائة رجل ، وكان الهدى سبعين بدنه ، فكانت كل بدنة عن عشرة نفر (٣) قال ابن حجر : وهذا لم يوافق عليه ابن اسحاق لانه قاله استنباطا من قول جابر نحرنا البدنة عن عشرة وهذا لا يدل على أنهم لم ينحروا غير البدن مع أن بعضهم لم يكن أحرم أصلا . (٤) فهؤلاء القوم الذين أعلن الله عزوجل رضاه عنهم فى القرآن العظيم فحازو هذا الفوز والعطاء السخى ، انهم لجديرون بدخول جنات عرضها السموات والأرض ، وقد جاءت الاحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم زيادة على ماذكره الله تعالى فى شأنهم فى القرآن العظيم من الثناء

---

(١) النووى بشرح صحيح مسلم جـ ١٣ ص ٢ س ط المصرية
(٢) فتح البارى لابن حجر جـ ٣ ص ٧٧٤
(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٧٧٤
(٤) فتح البارى لابن حجر جـ ٧ ص ٤٤٠

عليهم ومدحهم والبشارة لهم ،بعدم دخولهم النار وأنهم من أهل الجنة .

روى البخارى ومسلم واحمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية" أنتم خير أهل الأرض" وكنا ألفا وأربعمائة ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة واللفظ للبخارى (١) .

وأخرج مسلم فى باب فضائل أصحاب الشجرة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع أم بشر أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : عند حفصة لا يدخل النار ـ ان شاء الله من أصحاب الشجرة أحد ،الذين بايعوا تحتها ، قالت : بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت : حفصة "وان منكم الا واردها (٢) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قد قال الله عز وجل (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) (٣) .

ورواه الترمذى عن جابر أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل أحد النار ممن بايع تحت الشجرة) وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٤) .

وروى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن عبد الحاطب شكاه الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله ليدخلن حاطب النار ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبت لا يدخلها فانه شهد بدرا والحديبية) (٥) .

---

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص١٥٧ صحيح مسلم ج ٢ ص١٤٤
(٢) سورة مريم الآية رقم ٧١ - ٧٢
(٣) صحيح مسلم جـ٢ ص٣٢٢
(٤) صحيح الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى ج ١٠ ص٣٦٢
(٥) صحيح مسلم جـ٢ ص٣٩٨

ورواه الامام احمد بسنده عنه (١)

وبهذه الاحاديث الصحيحة المذكورة عن الصادق المصدوق قد تبين لنا فضل أولئك المؤمنين كما ثبت لنا نجاتهم من النار، ولا ريب أن من أبعد عن النار فانه من أهل الجنة، وهذا يثبت أنهم خير أهل الأرض كما جاء مصرحا به في بعض الاحاديث المتقدمة. وهذه الخيرية ثابتة لهم بسبب ما حازوه من رضى الله عنهم من أجل ما قاموا به من نصرة الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم وبسبب سابقتهم في الاسلام وجهادهم المستمر لاعلاء كلمة الله ودحض كلمة الذين كفروا، وكفى بشهادة القرآن لهم وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى قال الله في حقه (لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) (٢) فرضي الله عنهم وأرضاهم وجمعنا معهم في دار الكرامة انه ولي ذلك والقادر عليه، وجزاهم الله عن الاسلام وعن المؤمنين خيرا.

قوله تعالى (فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم) (٣) قوله (فعلم) معطوفة على يبايعونك.

قال أبو السعود (٤): فعلم ما في قلوبهم: عطف على يبايعونك لما عرفت من أنه بايعوك لا على رضى فان رضاه تعالى مترتب على علمه بما في قلوبهم من الاخلاص عند مبايعتهم له صلى الله عليه وسلم (٥).

---

(١) مسند الامام احمد مع ترتيبه للساعاتي ج ٢١ ص ١٠٨
(٢) سورة النجم الاية رقم ٣-٤
(٣) سورة الفتح الاية رقم ١٨ (٤) تفسير ابي السعود ج ٥ ص ٦٢١ ط مكتبة الرياض الحديثة تحقيق عبد القادر احمد عطاء
(٥) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٧٨

والمعنى فعلم الله تعالى ما فى قلوب المؤمنين المبايعين من الصدق والاخلاص والوفاء بالعهد والثبات عليه والسمع والطاعة لله ولرسوله فى امر الجهاد وغيره .

ونقل القرطبى عن ابن جريج وقتادة - أن معنى علم - أى من الرضا بأمر البيعة على أن لا يفروا .

وعن مقاتل : أى من كراهية البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت . (١)

ولو صح نقل هذا عن قتادة لكان مناقضا لما قام به الصحابة من المبادرة للبيعة وأنهم كانوا فى شوق الى دخول مكة مهما كان الحال لا يكرهون لقاء المشركين لو أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل البيعة ، فأرى أن حمل علم الله ، بما فى قلوبهم على كراهية البيعة غير لائق بمقام الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم .

قوله (فأنزل السكينة عليهم) أى الطمأنينة والثبات على ما هم عليه من دينهم وما هداهم الله اليه من الحق ، وقال قتادة أى الصبر والوقار ، وقال الزمخشرى أى الطمأنينة والامن بسبب الصلح (٢) .

والظاهر أنها معطوفة على ما قبلها من قوله (فعلم) وهذا ما يقتضيه السياق لأنها أقرب مذكور .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٧٨

(٢) الكشاف الزمخشرى المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٤٦

قوله تعالى (وأثابهم فتحا قريبا) أثابهم أعطاهم يقال : أثابه الله وأثوبه وثوبه مثوبة أعطاه اياها (١) والجملة معطوفة على ماقبلها ، وقد اختلفت أقوال المفسرين فى المراد بالفتح القريب المذكور فى هذه الآية ، فقيل :

١ - هو فتح خيبر لان الله فتحها عليهم بعد انصرافهم من الحديبية وهذا القول هو القول المشهور الذى عليه جمهور العلماء من المفسرين والمحدثين وأهل المغازى والسير ، وهذا القول هو الموافق لسير الفتوحات ولسياق آيات السورة الكريمة التى بشرت المسلمين به ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه هو وأصحابه من الحديبية - التى سهل الله له أن يعقد فيها مع المشركين ذلك الصلح الذى سماه الله فتحا مبينا ، وكان من شروطه ايقاف الحرب بينه وبين المشركين عشر سنين ، وبذلك الصلح أتيحت له الفرصة أن يضرب اليهود بخيبر وهم أشد الاعداء وأخطرهم فى نواحى المدينة ، وقد كانوا تضامنوا مع قريش وتحالفوا معها على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم والهجوم على المدينة كما فعل حيى بن أخطب فى وقعة الاحزاب فى السنة الخامسة قبل عام الحديبية بسنة واحدة .

ولهذا بشر الله رسوله والمؤمنين بفتح خيبر تعويضا لهم عن دخولهم مكة فى ذلك العام ، وهذا هو المراد بالفتح القريب الذى بشروا به مع المغانم الكثيرة التى سيأخذونها . وفعلا فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توجه بعد مجيئه الى المدينة

---

(١) القاموس المصدر السابق جـ ١ ص ٤٣

بمدة قصيرة الى خيبر ليرى مايشره

قال ابن اسحاق : ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج فى بقية المحرم الى خيبر (١) .

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية عن موسى بن عقبة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية مكث عشرين يوما أو قريبا من ذلك ثم خرج الى خيبر وهى التى وعده الله اياها (٢) .

قال ابن اسحاق : واتجه النبى صلى الله عليه وسلم الى خيبر وفى الطريق اليها وارى أنه يريد غطفان وكانت غطفان تريد أن تكون جبهة مع اليهود ضد الرسول صلى الله عليه وسلم فنزل المسلمون بواد يقال له الرجيع قرب منازل غطفان ، فخافت غطفان على نفسها وأهلها وأموالها وتركت معاونة اليهود .

قال ابن اسحاق : فبلغنى أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر جمعوا له ليظاهروا عليه اليهود حتى اذا ساروا منقلة (٣) ؟ سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم / حسا ظنوا أن القوم قد خالفوا اليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأهل خيبر (٤) .

أقول : وهذه التورية التى فعلها الرسول - صلى الله عليه وسلم خطة عظيمة من الخطط الحربية التى تفعل ضد الاعداء وقت الحروب ، والمعروف أن الحرب خدعة كما فى الحديث .

---

(١) سيرة ابن هشام المصدر السابق ج ٣ ص ٧٩١
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ١٨١
(٣) المنقلة كمرحلة السفر زنة ومعنى : القاموس المحيط ج ٤ ص ٦١
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص ٧٩١ - ٧٩٢

وسار الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى وصلوا خيبر وفتحوها حصنا بعد حصن وغنموا منها مغانم كثيرة كما حدثهم بذلك القرآن قبل أن يكون ، وقسّم الرسول صلى الله عليه وسلم غنائمها على أهل الحديبية كما سبق توضيح ذلك وصالح أهلها على العمل فيها بشطر ثمرتها ، وكانت ذات أرض كثيرة - وخيرات وعقار وأموال ، واكتسب المسلمون فتح هذا البلد وغنموا خيراتها وذلك قوله تعالى (وأثابهم فتحا قريبا) .

وممن قال : بأن الفتح القريب المراد به فتح خيبر الزمخشرى (١) ، وذكر عن الحسن أنه فتح (٢) هجر - يعنى البحرين - وهوشاذ .

قال الطبرى - رحمه الله تعالى - قوله " أثابهم فتحا قريبا " عوضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها (٣) فتحا قريبا وذلك فيما قيل فتح خيبر ، وذكره عن ابن أبى ليلى وقتادة (٤) وقيل المراد بالفتح فتح مكة ولم يذكر قائل هذا القول فانما ذكره القرطبى بدون عزو .

قال : يعنى القرطبى - ومغانم بدل من " فتحا قريبا " والواو مقحمة قال : وقيل

---

(١) فى كشافه جـ ٣ ص ٥٤١

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٤٦

(٣) وقول الشيخ ان اراد به بعد البيعة فهذا ممكن لانهم بايعوا على قتال أهل مكة وان كان قبلها فهذا مناف لهدف الرسول صلى الله عليه وسلم أنه خرج ولا يريد حربا

(٤) الطبرى فى تفسيره جـ ٢٦ ص ٥٥

مغانم كثيرة فارس والروم (١) وفتحا منصوب على أنه مفعول جعل وقريبا مفعول ثانى لجعل أو صفة لفتحا .

قوله تعالى (ومغانم كثيرة تأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) (٢) والمغانم الكثيرة المعطوفة على الفتح القريب هى ماأخذه المؤمنون فى فتح خيبر كما أشرنا اليه فى شرحنا للفتح القريب ، وقد قسمها النبى صلى الله عليه وسلم على أهل الحديبية كما مر ذكره فى الحديث عند أحمد وأبى داود عن مجمع بن جارية .

(وكان الله عزيزا) ذو عزة وقوة فى غلبة أعدائه وقهرهم - حكيما مراعيا لمقتضى الحكمة فى أفعاله كلها (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكفّ أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما) (٣) .

هذا من جملة ما امتن الله به على المؤمنين المبايعين بيعة الرضوان زيادة لهم على ثواب الآخرة بأنه وعدهم مغانم كثيرة يأخذونها فى أوقاتها المقدرة لها .

---

(١) القرطبى ج ١٦ ص ٢٧٨
(٢) سورة الفتح الآية رقم ١٩
(٣) سورة الفتح الآية رقم ٢٠

(هل هذه المغانم هى نفس الأولى أم غيرها)

وقد اختلفت الاقوال فى المراد بهذه المغانم التى وعدهم الله بها ثانيا ، فقيل هى التى يأخذونها مع الفتح القريب بخيبر ، وقيل غيرها ، والظاهر أن الغنائم الموعود بها ثانيا غير الغنائم التى وعدوا بها أولا مع الفتح ، ويدل لذلك قوله تعالى (فعجل لكم هذه) والذى يبدو أن الاشارة الى المغانم الأولى التى مع الفتح القريب والمرجح أنه فتح خيبر كما تقدم بيانه .

وأن المغانم المعجلة غير المؤجلة الموعود بها ثانيا ماسيغنمه المسلمون من أموال اليهود وأهل الشرك .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل فى المغانم التى ذكر الله أنه وعدها هؤلاء القوم ، فقال بعضهم : هى كل مغنم أعطاه الله المؤمنين من أموال أهل الشرك من لدن أنزل هذه الآية على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وروى بسنده عن مجاهد أنها ـ أى المغانم ـ ما يأخذونه الى اليوم ، وقال آخرون هى خيبر وذكره بسنده عن ابن زيد قال : كان أبى يقول ذلك (١) وقال ابن كثير هى جميع المغانم الى اليوم . (٢)

وذكر القرطبى عن ابن عباس ومجاهد أنها الغنائم التى تكون الى يوم القيامة (٣) وعن ابن زيد مثله ، وقال الزمخشرى هى مايفىء على المؤمنين الى يوم القيامة (٤) .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢٦ ص ٥٦
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٩١
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢٧٨
(٤) الكشاف فى التفسير جـ ٣ ص ٥٤٦

قوله تعالى (فعجل لكم هذه) اختلف أيضا فى المراد بها فعن مجاهد وقتادة أنها خيبر . ذكره ابن جرير بسنده عنهما ، وقيل صلح الحديبية ذكره ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه ، ورواه عنه ابن كثير من طريق العوفى ثم قال ابن جرير وأولى الاقوال فى تأويل المعنى ما قاله مجاهد معللا ترجيحه لذلك القول بأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ولم يفتحوا فتحا أقرب الى بيعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية من فتح خيبر وغنائمها ،

وأما قوله (وعدكم الله مغانم كثيرة) فهى سائر الغنائم التى غنمهموها الله بعد خيبر كغنائم هوازن وغطفان وفارس والروم ، وقد بينا أن ذلك هو الراجح من الاقوال وعبر بالتعجيل فى قوله (فعجل لكم هذه) بالنسبة لما وراء ذلك من الفتوح الكثيرة والغنائم الوافرة ، وعلى رأسها فتح مكة المكرمة ، فغنائم خيبر هى المعجلة بالنسبة لما بعدها وهى أول الوعد الصادق الموعود به المؤمنون

قوله تعالى (وكف أيدى الناس عنكم) الكف كف الانسان وهى ما بها يبسط ويقبض ، وتصورف على الكف بالدفع على أى وجه كان بالكف كان او غيرها (١) تقول : كففته عنه دفعته وصرفته ككففته فكف (٢) والمعنى أن الله عز وجل يمتن ويبين للمؤمنين الخارجين مع رسوله — صلى الله عليه وسلم — مدى عنايته بهم وحفظه لهم ورعايته التامة لهم ولمن خلفهم من الأهل والذرية والأموال لأنهم

---

(١) المفردات فى غريب القرآن المصدر السابق جـ ١ ص ٤٣٣
(٢) القاموس المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٣

خارجون لطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيمتن عليهم بما دفع عنهم مما حيك لهم من قبل أعدائهم من اليهود والمشركين الذين يتربصون بهم الدوائر .

والتعبير بذكر كف الايدى دون غيرها مقصود لنكتة لان الايدى هى التى تمتد الى مايريد أصحابها من خير أو شر من الاخذ والبطش وغيره ، وأيدى مضاف والناس مضاف اليه ، واختلف فى المراد بهؤلاء الناس الذين كف الله أيديهم عن المؤمنين فقيل هم اليهود الذين كانوا حول المدينة ، الذين أجلاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى خيبر ، كف الله أيديهم عن البطش بأهالى المسلمين وعيالهم وأموالهم بالمدينة حين خرجوا الى مكة لأداء العمرة فى عام الحديبية ومن قال بهذا القول قتادة ذكر ذلك ابن جرير الطبرى - رحمه الله - وقيل انهم المشركون الموجودون بمكة كف الله أيديهم عن المسلمين بسبب الصلح وحبسهم عنهم ، ورد هذا ابن جرير .

بأن كف أيدى أهل مكة عن المؤمنين ذكره الله بعد هذه الآية ونص عليه فى قوله (وهو الذى كف ايديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) .

قال : فعلم بذلك أن الكف الذى ذكر الله تعالى (وكف أيدى الناس عنكم) غير الكف الذى ذكره الله بعد هذه الآية فى قوله (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة (١) .

---

(١)

وقيل هم اليهود وحلفاؤهم من غطفان وأسد ، حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا ذكر ذلك الزمخشري وغيره (١) .

لكن يرد هذا أن السورة نزلت قبل غزوة خيبر كما هو معلوم ، والتأويل بذلك فيه بعد ، والذي يظهر أن القول الأول أوجه وان كانت الأوجه الثلاثة واردة ، لأن الاعداء من أسد وغطفان واليهود قرب المدينة فلولا رعاية الله لعباده لاحتلوها بعد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الى مكة ، وعلى كل فالآية هذه وسائر آيات السورة كلها مملوءة بالامتنان على المؤمنين وتذكيرهم برعاية اللـــه وتطمينهم بأنه تعالى معهم ، ولن يتخلى عنهم ، وأن الغلبة والنصر لهم مهما كثر أعداؤهم ، ولهذا قال تعالى (ولتكون آية) أى ولتكون الكفة المعهودة آيـــة وعلامة واضحة للمؤمنين يعرفون بها نعمة الله عليهم ويتيقنون أن ما اختاره الله تعالى ورسوله لهم خير مما يختارونه لأنفسهم ، وبذلك يزيد يقينهم بأن ما فعلـــه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديبية من الصلح هو الطريق الأسلم للنصر والفتوح وانتشار الاسلام ، وأخذ الغنائم من أموال الأعداء .

قوله (ويهديكم صراطا مستقيما) أى يثبتكم على الهدى ودين الحق ويوفقكم فـــى جميع أعمالكم .

والصراط المستقيم هو صراط الله الذى أمر عباده أن يسألوه اياه في كل ركعة مـــن الصلوات الخمس ، وهو صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ٣ صـ ٥٤٦

والصالحين جعلنا الله واخواننا المسلمين من أولئك الذين أنعم الله عليهم في الدنيا والآخرة وهداهم الى هذا الصراط الذى من هدى اليه فاز فى الدنيا والآخرة لأن من هدى اليه دخل الجنة . قال تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) (١) أى والفوز هنا المراد به دخول الجنة .

قوله تعالى (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا) (٢) .

الواو عاطفة وأخرى فى موضع نصب بالعطف على مغانم أى وعدكم الله ملك مغانم كثيرة وملك أخرى لأن المفعول الثانى لا يكون الا منصوبا لان الاعيان لا يقع الوعد عليها وانما يقع على تملكها وحيازتها (٣) ويجوز أن تكون أخرى مفعولا لفعل محذوف تقديره وأعطاكم أخرى ، أو مبتدأ والجملة بعده خبره .

والمعنى وعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ومن جملة ما وعدكم به فتح بلدة أخرى ، لن تقدروا أنتم عليها ، ولكن الله عز وجل قادر عليها بقدرته التى لا يعجزها شىء ان أراد وقوع ذلك الشىء لأن كل شىء هو فى قبضة يده وفى حوزة ملكه وتصرفه انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٤) ولذا قال (قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا) ووصفه الأخرى بعدم القدرة عليها لما سبق لها من المحاولة ،

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٨٥
(٢) سورة الفتح الآية رقم ٢١
(٣) ابن الانبارى فى اعراب القرآن جـ٢ ص ٣٧٨
(٤) سورة يس الآية رقم ٨٢

وقد حرف تحقيق ، وجملة أحاط الله بها في موضع نصب صفة لأخرى والاحاطة تقال على وجهين أحدهما في الأجسام نحو : أحطت بمكان كذا ، أو تستعمل في الحفظ نحو : ان الله بكل شيء محيطا - أي حافظ له من جميع جهاته وهو المقصود هنا .

والثاني : في العلم نحو قوله تعالى (أحاط بكل شيء علما) وقوله (ان الله بما تعملون محيطا) (١) ، أي أن الله حفظها لكم فهي كالشيء المحاط به المحفوظ المعد الذي لا يفوت .

واختلفوا في المراد بهذه الأخرى التي احتفظ الله بها - لهم - ، أنهم سيفتحوها ما هي ؟ فقيل : هي مكة ذكره ابن جرير الطبرى وابن كثير عن قتادة واختاره ابن جرير وقال : وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما يدل عليه ظاهر التنزيل وذلك أن الله تعالى أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها .

ومعقول أنه لا يقال : لقوم لم يقدروا على هذه المدينة الا أن يكونوا قد راموها وتعذرت عليهم ، أما وهم لم يروموها حتى تتعذر عليهم فلا يقال : انهم لم يقدروا عليها ، فاذا كان ذلك كذلك وكان معلوما أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه ، خيبر بحرب ولا وجه اليها لقتال أهلها

---

(١) الراغب في مفرداته جـ ١ ص ١٣٦

جيشا ولا سرية ،علم أن المعنى بقوله (وأخرى لم تقدروا عليها) غيرها (١) . أى غير خيبر فكيف يقال : انها خيبر فقول من قال : انها خيبر قول بعيد كما سمعت من قول كبير المفسرين ابن جرير - قال ابن جرير القول بأنها مكة : يتجه بأنها هي التى قد عالجها ورامها فتعذرت فكان ذلك أحرى بأن تكون مكة ،فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه أحاط بها وبأهلها وأنه فاتحها عليهم .

وقيل ان المراد بالأخرى المذكورة فى الآية خيبر ذكره أيضا ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ،وابن اسحاق والضحاك وابن زيد ،وذكر ابن كثير عن ابن عباس أيضا قال : وأخرى لم تقدروا عليها) قال المراد بها الفتوح الى اليوم (٢) .

وذكر مثله ابن جرير عن مجاهد ،وقيل المراد بالأخرى أرض فارس والروم ذكره ابن جرير الطبرى بسنده عن ابن أبى ليلى والحسن وابن عباس (٣) .

وقال الزمخشرى : هى مغانم هوازن فى غزوة حنين .

قال : ومعنى (لم تقدروا عليها "باعتبار ما فيها من الجولة" (٤) .

وظاهر سياق الآيات التبشير والتطمين للمؤمنين بأن الله تعالى مبشرهم ببشائر عظمى كثيرة ، وكل الأوجه التى مر ذكرها محتملة لتلك البشائر التى تحققت فيما بعد صلح الحديبية ،لكن اذا نظرنا الى الجو الذى نزلت فيه هذه السورة الكريمة وما كان يقصده الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فى هذا السفر من أداء نسك

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٦ ص ٥٨
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٩٢
(٣) المصدر المذكور ٢٦/ ٥٧
(٤) الكشاف للزمخشرى جـ ٣ ص ٥٤٧

العمرة والطواف ببيت الله الحرام وشدة شوقهم الى دخول بلد الله الحرام وقد أخرجوا منه بغير حق ، وقد حاولوا دخوله فى هذه العمرة (عمرة الحديبية) ولكن أبت ارادة الله تعالى دخولهم لمكة فى ذلك العام ، من هذا نجد أن المراد بقوله (عز وجل (وأخرى لم تقدروا عليها) هى مكة المكرمة فهى أحب الفتوح الى المؤمنين لما كان لها من مكانة رفيعة فى قلوبهم ، فهى التى يتوجهون اليها فى صلاتهم وفيها الكعبة المشرفة ، فشوقهم اليها عظيم ، وقد رجعوا فى ذلك العام ولم يدخلوها لما حصل من الصلح الذى هو عنوان على فتحها ومقدمة له ، لهذا نوه الله تعالى لهم بذلك الفتح ، وقد حصل ذلك الفتح ولله الحمد فقد دخلوها بعد هذا العام ظافرين منتصرين على أعدائهم محطمين لما فيها من الأصنام ، وارتفع فيها صوت الحق مدويا وهذا هو المعنى الأقرب الذى يمكن أن يكون مرادا بقوله (وأخرى لم تقدروا عليها) والله تعالى أعلم .

قوله (وكان الله على كل شىء قديرا) أى كان الله وما زال على كل شىء من الأشياء قديرا فلا تختص قدرته بشىء دون شىء فهى شاملة لجميع القدرات ، وهذا تذييل فى غاية المناسبة فى موضعه لشمول قدرة الله عز وجل لكل ما أراده سبحانه وتعالى مما ذكر وغيره .

(نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين سنة من سنن الله)

قال تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) (١). (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) (٢) .

التولّى هو الفرار من المعركة عند مقابلة العدو خوفا على النفس من الموت ، والادبار جمع دبر، ودبر الشىء خلاف القبل ، ويكنى بهما عن العضوين المخصوصين قال تعالى (يضربون وجوههم وأدبارهم) (٣) أى قدامهم وخلفهم (٤) ، والتعبير بالدبر هنا كناية عن شناعة الانهزام من المهزوم . وقد جاء النهى عن ذلك وعد من الكبائر بالنسبة للمسلم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أومتحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) ؛

وذلك نهى عن الانهزام من المعركة والفرار يوم الزحف من الكبائر كما قدمنا .

قوله تعالى (ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) قال الراغب (٥) : والولاية

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٢
(٢) سورة الفتح الآية ٢٣
(٣) سورة الانفال الآية ١٥
(٤) المفردات ١٦٤
(٥) المفردات للراغب جـ ١ ص ١٦٤

النصرة والولاية - كذلك - تولي الأمر ، والولايـــة والولاية نحو الدلالة والدلالة - أقول ومادمت كالدلالة معنى ذلك أن الواو مثلثة فان الأفصح حينئذ فيها الفتح ويليه الكسر وأردأ اللغات الضم هكذا قالوا في الدلالة (١) .

وحقيقة الولاية تولي الأمر والولي والمولى يستعملان في ذلك (٢) ، والتنكيـــر في وليا للتعميم لأن النكرة بعد النفي تعم أي لا يجدون فردا ما من الأولياء ولا فردا ما من الذين ينصرون ، وقيل الولي من ينفع باللطف ، والنصير من ينفع بالعنف كما تفيده كلمة نصير التي تشعر بالقوة والمناصرة ، وهذا هو المعنـــى المنفي عنهم .

والمعنـــى أن الله عز وجل يبشر عباده المبايعين أنه لو ناجزهم المشركـــون ولم يصالحوهم لانهزم أعداؤهم فارين مولين الأدبار وأنهم لا يجدون أحـــدا يواليهم ولا حارس يحرسهم ولا نصير ينصرهم أو يجيرهم من ضربات المؤمنيـــن النازلة بهم .

ثم أخبر تعالى أن نصر المؤمنين وهزيمة أعدائهم سنة من سنن الله الكونيـــة في نصرة أتباع الحق وعباده المؤمنين ، وخذلان أعدائهم المعاندين ، وأن الحق لا يقف أمامه الباطل مهما تظاهر أهل الباطل وتباهوا وتفاخروا فانهم مخذولون والباطل مضمحل وزائل لا محالة ، وفي هذا رفع لمعنويات المؤمنين ، وأن الصلح ليس ناشئا عن ضعف فيهم ولا عن استسلام للأعداء ، فالمؤمنون أقوياء وأشـداء

---

(١) البحث والمناظرة في المنطق والجدل الشيخ محمد ج ١ص
(٢) المفردات المصدر السابق ج ١ ص ٣٣

على الكفار أقوياء بعقيدتهم وايمانهم واخلاصهم لله تعالى وأن الله معهم وناصرهم ، وهذه سنة الله (١) تعالى المبنية على العدل والحكمة ، ولهذا قال تعالى (سنة الله التى قد خلت من قبل)

وسنة منصوب على أنه مصدر والعامل فيه محذوف تقديره سن الله ذلك سنة وهذه السنة هى ما جرى من نصر الله تعالى لأوليائه فى كل مكان وفى كل زمان قال تعالى (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) (٢) وقال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز) (٣) .

وقد حصل نصر الله للمؤمنين فى عدة مواطن كبدر وغيره من المواقع التى نصر الله فيها الحق على الباطل ، ومازال النصر حليف المؤمنين المخلصين الذين يريد يريدون علو كلمة الله ويفضلونها ويضحون فى سبيلها بجميع المبادئ ، ويرون الاسلام هو غايتهم المنشودة وهدفهم المقصود .

واختلف المفسرون فى المراد بالذين كفروا فى قوله (ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار) . من هؤلاء الذين كفروا ؟ فقيل هم أهل مكة لمّا كان المسلمون بالحديبية ، وبذلك قال ابن جرير وابن كثير والزمخشرى وغيرهم ، وقيل هم أسد وغطفان وأهل خيبر . وممن قال به الخازن (٤) والبغوى ، والقول الأول هو

---

(١) قال الزمخشرى : سنة فى موضع المصدر المؤكد أى سن الله غلبة أنبيائه سنة ، ج ٣ ص ٥٤٧

(٢) ٤٠

(٣) سورة المجادلة الآية رقم ٢١

(٤) هومحمد بن ابراهيم البغدادى الشهير بالخازن ج ٦ ص ٢٠٣ طبعة الحلبى الثانية ١٣٧٥ هـ توفى سنة ٧٢٥ والبغوى هوالحسين بن مسعود الفراء البغوى توفى سنة ٥١٦ معالم التنزيل حاشية الخازن

الأرجح لما ذكر في سبب نزول الآية ولما سبق أن بيناه بأن الآيات في صدد سفر الحديبية وما حصل فيها من المفاوضات مع المشركين والتى تمخض عنها الصلح وفيها تذكير وامتنان على المؤمنين بما حصل واقناع لهم بأن ما نهجه الرسول -صلى الله عليه وسلم- من السياسة الحكيمة في تلك الرحلة انما هو النهج الصحيح الموافق للحكمة والصواب .

قوله تعالى (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا) (١) . الكف قد تقدم تفسيره عند قوله وكف أيدى الناس عنكم ، قوله (ببطن مكة) أى داخلها والبطن خلاف الظهر قال في القاموس (٢) : الباطن داخل كل شيء ومن الأرض ما غمض وجمعه أبطنة وأبطان - ويطلق -على مسيل الماء .

وروى ابن جرير الطبرى عن قتادة (بطن مكة) قال : الحديبية ونقله السيوطى في الدر المنثور عن قتادة أيضا .

وقال الراغب : والظفر الفوز وأصله من ظفره أى نشب ظفره فيه (٣) .

وقد روى في سبب نزول الآية أحاديث منها :

١ - ما رواه مسلم في صحيحه والترمذى وأبو داود والنسائي واحمد والبيهقى والواحدى وابن جرير عن أنس رضى الله عنه قال : لما كان يوم

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ٢٤
(٢) جـ ٤ ص ٢٠٤
(٣) الراغب جـ ١ ص ٣١٤

الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانون من أهل مكة مدججون بالسلاح من قبل جبل التنعيم فدعا عليهم فأخذوا ونزلت هذه الآية (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم)

وفى رواية الترمذى عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه - يعنى رسول الله - وعند الامام احمد فى قوله (وهو الذى كف ايديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) يعنى جبل التنعيم من مكة ، واذا كان ذلك تفسيرا لقوله ببطن مكة فيكون اطلاق بطن مكة على جبل التنعيم أو الحديبية كما فى رواية ابن جرير عن قتادة وكما نقله السيوطى (١) عنه يكون من باب اطلاق الكل وارادة الجزء وهذا تعبير معروف فى القرآن بكثرة كما هو معروف فى اللغة والبيان .

وروى الامام احمد عن عبد الله بن مغفل المزنى قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحديبية فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القرآن الى أن قال : (قد خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله عز وجل بأبصارهم فقدمنا اليهم فأخذناهم فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هل جئتم فى عهد أحد ؟ أو هل جعل لكم أحد أمانا ؟ قالوا لا : فخلى سبيلهم فأنزل الله (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا) (٢) .

---

(١) الدر المنثور جـ ٦ ص ٧٧
(٢) مسند الامام احمد مع ترتيب الفتح الربانى للساعاتى جـ ١٨ ص ٢٧٧

وأخرج عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أنه كان مضطجعا تحت شجرة فجاء أربعة من مشركى مكة فجعلوا يقعون فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: فتحولت الى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا فبينما هم كذلك اذ نادى مناد من أسفل الوادى ياللمهاجرين قتل ابن زنيم (١) قال: فاخترطت سيفى فشددت على الأربعة فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثا (٢) فقلت: والذى أكرم وجه محمد لا يرفع رجل منكم رأسه الا ضربت الذى يعنى فيه عيناه فجئت أسوقهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عمى عامر بابن مكرز يقود به فرسه يقود سبعين حتى وقفنا فنظر اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دعوهم يكون لهم بدو الفجور (٣). وعفا عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ... الى آخر الحديث (٤)، وهذه الرواية ورواية أنس السابقة متقاربتان فى تحديد عدد القوم المهاجمين لجيش المسلمين فى الحديبية ، والظاهر أن الأربعة الذين أتى بهم سلمة قد يكونون طليعة للسبعين الذين أتى بهم عم سلمة وانما تقدموا للتحرش بالمسلمين ، ولفرض انشاب المعركة معهم ، ثم ينقضوا لنصرة هذا الكمين الذى أتى به عم سلمة والذى يبلغ عدده سبعون رجلا .

وأما الرواية التى ذكرت أنهم ثلاثون التى رواها عبد الله بن مغفل فهى لا تقاوم

---

(١) بضم الزاى وفتح النون وسكون الياء بعدها ميم والد سارية الصحابى الذى ناداه عمر بقوله ياسارية الجبل

(٢) الضغث : المراد به أنه جعلها مجموعة فى مكان واحد لحزمة الحطب (فخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث)

(٣) أول الفجور

(٤) انظر مسند احمد مع ترتيبه للساعاتى

الروايات الصحيحة التي رواها مسلم وغيره عن أنس ، ويمكن أن يقال : ان كلا من أهل الروايات أخبر بالعدد الذي علمه ، فيكون لا منافاة بين الروايات الثلاثة لأن العدد لا مفهوم له ، ومما ذكرت في سبب نزول هذه الآية الكريمة يتبين لنا مدى الصفح والعفو من النبي صلى الله عليه وسلم مما تحلى به وأنه كان لا يريد سفك أي دم في مكة حتى الذين كانوا يريدون الغدر به ، وأنه من شأنه تفضيل السلم على الحرب ، وكان هذا الخلق الذي منحه الله عليه الصلاة والسلام - جعل الناس تثق فيه الثقة التامة وتقتنع بصحة هذا الدين الذي جاء به لما رأوا فيه من السماحة وسمو الاخلاق حتى دخلوا في دين الله أفواجا - ولله الحمد .

ولو لم يكن له صلى الله عليه وسلم هذا الخلق وهذه الروح الكريمة التي جبلت على العفو والتسامح لكان باستطاعته أن يقتل مجموعة كبيرة من الاعداء الذين كانوا يريدون غرته ، فانهم أصبحوا في قبضة يده ، ولكنه أراد صلى الله عليه وسلم أن ينفذ عمليا ما كان قد أخبر به قريشا من أنه لم يجئ لحرب ، وهو معروف أنه لا يخون لا في جاهلية ولا في اسلام . ولهذا روي عنه أنه لما أخذ هؤلاء العصابة عفا عنهم وقال : دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناؤه .

وهذا هو الظفر المذكور في قوله (من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا) . والظفر النصر ، قال ابن فارس الظاء والفاء والراء أصلان صحيحان يدل أحدهما على القهر والفوز والغلبة ، والآخر على القوة في الشيء ، ولعل الأصلين يتقاربان في القياس فالأول الظفر وهو الفلاح والفوز بالشيء ، يقال : ظفر

يظفر ظفرا قال تعالى (من بعد أن أظفركم عليهم) (١)
والمعنى أن الله كف أيدى المسلمين عنهم من بعد القدرة والنصر على هؤلاء المشركين القادرين الذين أرادوا قتال الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فى الحديبية فلو قتل المسلمون هؤلاء لربما نشب الحرب بين أهل مكة والمسلمين ولهذا كف الله أيدى الجميع عن بعض بما حصل من الصلح (وكان الله بما تعملون بصيرا) (٢) من العفو عنهم وغيره فكل ذلك جار بتدبيره وحكمته جل وعلا .

ومن هنا يتبين لنا أن المراد بالذين كف الله أيديهم عن المسلمين وأيدى المسلمين عنهم هم مشركو مكة ، وان ذلك كان عام الحديبية عندما صدوا المسلمين عن البيت . وأما الرواية التى ذكرها ابن جرير (٣) - رحمه الله - ونقلها السيوطى (٤) عنه وعن ابن أبى حاتم وابن المنذر فى سبب نزول الآية المذكورة عن ابن أبى أبزى فهى مخالفة للأحاديث الصحيحة التى ذكرنا ومخالفة للواقع حيث روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج الى العمرة لم يدع فى المدينة سلاحا ولا كراعا الا حمله ، وفيها فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها فأتاه عينه فأخبره أن عكرمة بن أبى جهل خرج عليهم فى خمسمائة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد يا خالد هذا ابن عمك أتاك فى الخيل فأتاه خالد فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ثم عاد فأنزل (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٤
(٢) من سورة الفتح الآية رقم ٢٤
(٣) الطبرى جـ ٢٦ ص ٥٩
(٤) الدر المنثور جـ ٦ ص ٧٨

فهذه الرواية مع كونها مخالفة للروايات السابقة فانها تحمل فى طياتها مايردها وذلك ان خالد بن الوليد لم يسلم فى تلك السنة ولا التى بعدها بل كـــان اسلامه فى صفر فى السنة الثامنة من الهجرة مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (١) كما ذكر ذلك ابن كثير . وقد كان خالد طليعة فى خيل المشركين فى تلك السنة كما ثبت فى الروايات الصحيحة السابقة فكيف يكون بعثه الرسول - صلى الله عليه وسلم - لصد عكرمة فى هذه العمرة ؟

وأيضا فان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد نزل فى الحديبية ولم ينزل بمنـــى فى عمرة الصد ولم يثبت أنه حمل جميع الاسلحة من المدينة ، بل جاء معتمـــرا معه سلاح الراكب ، ولا يجوز أن يكون فى عمرة القضاء لأنّ النبى صلى الله عليـــه وسلم دخل مكة بدون مقاومة فان قيل يوم الفتح فلا يكون ذلك لأنّ النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة محاربا ولم يسق معه هديا وقد دخلها النبى صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه المغفر (٢) .

قال تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفـــا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (٣)

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٨
(٢) تفسير ابن كثير للرد على هذه الرواية جـ ٤ ص ١٩٢ - ١٩٣
(٣) سورة الفتح الآية رقم ٢٥

بعد أن بين الله تعالى كف أيدى المسلمين عن المشركين عن القتال بمكة من لطفه سبحانه وتعالى ، وأن ذلك لحكمة علمها مسبقا ثم كشفها لعباده في هذه الآية لا لأن المشركين لم يستحقوا القتل بل انهم قد فعلوا ما يستحقون بسببه القتل والهلاك والدمار ، وانما كان هذا الكف لحكم كثيرة منها مابينته هذه الآية الكريمة كما يأتى . ومنها ما ظهر جليا واضحا بعد ذلك من الفتوح المتتابعة ودخول الناس فى الاسلام قال تعالى (هم الذين كفروا) هم مبتدأ ، الذين كفروا خبره . أى هم الجاحدون لوحدانية الله تعالى لا غيرهم والمراد أهل مكة فأثبت لهم الكفر به جل وعلا ، وهذه الجريمة كافية وحدها لاستحقاقهم بها القتل وكل شر ينزل بهم لكنهم لم يكتفوا بها بل ضموا اليها جريمة أخرى شنيعة وهى أنهم يصدون من جاء زائرا معظما لبيت الله الحرام ، وهذه جريمة هى كذلك نفسها تستحق أن يقتل عليها المشركون ويحاربوا ويستأصلوا ، ولكن الله أخر ذلك فيما بعد : ليظهر لرسوله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ما أراد لهم من النصر والظهور على أعدائهم فيما بعد (وصدوكم) معطوفة على كفروا ، والصد : المنع قال الراغب (١) الصدود والصد قد يكون انصرافا عن الشىء وامتناعا نحو (يصدون عنك صدودا) وقد يكون صرفا ومنعا نحو (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) (٢) .

وهذا المعنى هو ما اتصف به كفار مكة فهم صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم . ومن جملة الصد الذى عملوا منعهم من جاء زائرا لهذا البيت يريد نسك الحج أو العمرة كما أنهم منعوا الهدى أن يصل الى محله الذى ينحر فيه عادة .

---

(١) مفردات الراغب المصدر السابق ج ١ ص ٧٥

(٢) من سورة النمل الآية رقم ٢٤

فهذه الجرائم والفضائح كلها سجلها عليهم القرآن لتفضحهم أمام الخلق الى يوم القيامة وليعذبهم الله عز وجل فى الدنيا بالقتل والهزيمة وفى الآخرة بدخولهم جهنم وبئس المصير ، فمنعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعباد الله المؤمنين عن بيته العتيق . وهم أحق الناس به وهم أولياؤه دون غيرهم مع أنه كان معروفا لدى جميع سكان الجزيرة العربية وأهل الأديان من عهد ابراهيم عليه السلام ، أنه لا يصد ولا يمنع من جاء زائرا لهذا البيت أيا كان دينه وعقيدته وكانوا لا يحبسون الهدى ولا يتعرضون له بسوء من حين يقلد ويشعر ، ويعرف أنه متجه للحرم ، رغم كثرة حروب العرب وسلب بعضهم البعض لكنا نرى أهل مكة الكفار منعوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من زيارة بيت الله الحرام وصدوهم عنه حسدا من عند أنفسهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - على المكانة التى منحه الله بسبب النبوة ، وأبت نفوسهم الا أن يفعلوا مالا يعتقدونه دينا يدفعهم الى ذلك العصبية الجاهلية .

والهدى اسم لما يهدى للحرم من بهيمة الأنعام .

قال الراغب (٣) : والهدى مختص بما يهدى للبيت ونقل ذلك عن الاخفش ، والواحدة هدية ، ويقال للأنثى هدى ، كأنه مصدر وصف به قال الله تعالى : (فان أحصرتم فما استيسر من الهدى) هديا بالغ الكعبة ، والهدى والقلائد

---

(١) مفردات الراغب المصدر السابق ج ١ ص ٧٥

(٢) من سورة النمل الآية رقم ٢٤

(٣) مفردات القرآن للراغب ج ١ ص ٥٤١

والهدى معكوفا . هـ (١) والهدى منصوب لعطفه على الضمير فى صدوكم أى صدوكم وصدوا الهدى (ومعكوفا) أى محبوسا عن وصوله الى المكان المعتاد الذى ينحر فيه .

حال من الهدى - والمراد بالهدى هنا ما ساقه النبى صلى الله عليه وسلم من النعم عام الحديبية ومن معه من الصحابة وكان عدد ما أهداه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الحرم سبعين بدنة كما تقدم فى حديث المسوربن مخرمة ومروان بن الحكم .

والمحل بكسر الميم غاية الشيء وبالفتح هوالموضع الذى يحل فيه الناس .
والمعنى أنهم منعوا الهدى أن يصل الى المكان الذى يحل نحره فيه عادة .

واختلف فى المراد بقوله (أن يبلغ محله) فرأى الشافعى أن محل الهدى الحرم لغير المحصر ، وأما المحصر فمحل هديه حيث أحصر كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية .

وروى عن أبى حنيفة أن محل الهدى الحرم مطلقا وأن بعض الحديبية من الحرم وقد نحر صلى الله عليه وسلم فيما هو من الحرم ، والمراد صدها عن محلها المعهود وهو منى (٢) .

---

(١) القرطبى جـ١٦ ص ٢٨٣
(٢) ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم القاضى أبوالسعود جـ ٥ ص ١٦٣ - ١٦٤ والقرطبى جـ ٦ ص ٢٨٣

قال الزمخشرى : فى معنى قوله تعالى (أن يبلغ محله) مكانه الذى يحل فيه نحره قال : وهذا دليل لأبى حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم ، وأجاب من أورد عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نحر فى الحديبية بأن بعض الحديبية من الحرم . (١) .

والأولى ماذكر عن الشافعى لظاهر الآية المصرحة بصد الهدى وحبسه . قال الالوسى : ولعل من قال بعض الحديبية من الحرم استند الى خبر صحيح ومن قواعدهم أن المثبت مقدم على النافى والله تعالى أعلم . (٢)

قوله تعالى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) (٣) .

الظاهر أن الحكمة التى من أجلها لم يرد الله وقوع الحرب بين المسلمين والمشركين بمكة عام الحديبية هى كون مكة بها أناس مؤمنون مستضعفون لا يعلمهم المسلمون الذين هم مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك العام لا بأسمائهم ولا أماكنهم ولا اسلامهم . فلو وقع الحرب لم يؤمن أن يموت هؤلاء الضعفاء كلهم أو بعضهم لكون المسلمين جاهلين لهم .

وذكر بعض العلماء جماعة منهم :

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٨

(٢) روح المعانى جـ ٢٦ ص ١١٣

(٣) الآية من سورة الفتح رقم ٢٥

كسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة وأبى جندل بن سهيل وأشباههم . (١)
والوطء المذكور فى قوله (أن تطئوهم) المراد به الابادة والدوس بالخيل وهو كناية عن اهلاكهم بالسيف وغيره ، وورد (اللهم اشدد وطأتك على مضر) أى أذلهم وأهلكهم وقوله (أن تطئوهم) بدل من الضمير فى تعلموهم ، والمعرة الاذى والمضرة والعر - مرض يكون بالبدن كالجرب .

ومن هذا المعنى قيل للمضرة معرة تشبيها بالعر الذى هو الجرب . (٢)
وتقدير المعنى لولا وجود قوم من المسلمين لا علم لكم بهم لما كف أيديكم عنهم ولسلطكم عليهم فأبدتم خضراهم ولعذبهم الله فى ايديكم قتلا وأسرا وجرحا . ولكنه سبحانه فضلا منه واحسانا أبدل ذلك بالصلح وصيانة الدماء بمكة المكرمة وأنقذ الله من فيها من الحرب لوجود طائفة من المؤمنين بها مختلطين بالمشركين ولما علم سبحانه فى ذلك من المصلحة للمسلمين التى أظهرها فيما بعد :

قال الزمخشرى : وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ، ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير لولا رجال مؤمنون لمرجعهما الى معنى واحد ، ويكون لعذبنا هو الجواب قال : فان قلت أى معرة تصيبهم اذا قتلوهم وهم لا يعلمون ، قلت : يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء حالة المشركين ، فان قلت قوله (ليدخل الله

---

(١) القرطبى فى تفسيره ج ١٦ ص ٢٨٤ والسيرة النبوية ج ٣ ص ٧٨٦
(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب ج ١ ص ٣٢٨
(٣) ظاهر كلام الزمخشرى أن من قتل مسلما فى دار أهل الحرب لا يعلم اسلامه وجبت عليه الدية والكفارة . وهذا فيه خلاف بين العلماء . والذى يبدو من قوله تعالى " فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) انه عليه الكفارة فقط والله تعالى أعلم .

فى رحمته من يشاء) تعليل لماذا قلت : تعليل لما دلت عليه الاية وسيقت له من كف الايدى عن أهل مكة والمنع من قتلهم صونا لما بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال : كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله فى رحمته من يشاء أو ليدخل فى الاسلام من رغب فيه من المشركين . (١)

قوله (لو تزيلوا) والتزيل التفرق والتميز والانفصال أى لو تميز المسلمون عن الكفار وانحازوا وانفصلوا حتى يعرفوا لدى المؤمنين ويتضحوا لهم عن غيرهم من أهل الشرك لعذبنا الذين كفروا منهم العذاب الاليم - المؤلم الشديد - بأيديكم أيها المؤمنون المجاهدون .

وأخرج ابن جرير بسنده عن قتادة فى قوله تعالى (لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) قال هذا حين رد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يدخلوا مكة فكان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات فكره الله أن يؤذوا أو يوطئوا بغير علم (٢) كما أن من الحكمة التى أرادها الله أن يدخل فى الاسلام من كان فى أصلاب هؤلاء المشركين الذين بمكة ، فلو سلط المسلمين عليهم وأبادوهم لما دخل فى الاسلام من ذريتهم أحد ممن دخلوا بعد ذلك وأراد الله لهم الهداية ولهذا قال (ليدخل الله فى رحمته من يشاء) .

---

(١) الكشاف فى تفسيره جـ ٣ ص ٥٤٨

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٦ ص ٦٥

قال القرطبي : - رحمه الله تعالى - نقلا عن الضحاك في معنى قوله (لو تزيّلوا) لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ، ولكن الله أراد أن يدفع بالمؤمنين عن الكفار .

وذكر عن علي رضي الله عنه : سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا ، فقال : هم المشركون من أجداد نبي الله - صلى الله عليه وسلم - ومن كان بعدهم وفي عصرهم كان في أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليما . (١)

وهذه الآية فيها دلالة على أن المؤمن له حرمة عظيمة ونرى هنا أن هذه الحرمة بلغت هذا المبلغ العظيم حيث ان الكافر روعي جانبه من أجل حرمة المؤمنين اذ لا يمكن أن ينال من الكافر في هذا الظرف الا باذية المسلمين ، ولهذا روعي ذلك هذه المراعاة العجيبة .

والذي يبدو أن المراد بقوله (لو تزيلوا) أي المؤمنون المستضعفون المختلطون بالمشركين فالضمير راجع الى "رجال" وفيه تغليب الذكور على الاناث ، وقد ذكر السيوطي (٢) عن ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (لولا رجال مؤمنون) - لما دفع المسلمين عن المشركين يوم الحديبية ١. هـ

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢٦ ص ٢٨

(٢) الدر المنثور جـ ٦ ص ٧٩

قال تعالى ذامّا للمشركين ومنبها على بعض خسائسهم ومذكرا للمسلمين بما واجهوه منهم وممتنا على المؤمنين بما منحه اياهم من الطمأنينة والثبات على الايمان (اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحميّة حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما) (١) .

العامل فى (اذ) فى قوله (اذ جعل الذين كفروا) قيل : ان العامل محذوف تقديره اذكر اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، وقيل : ان العامل هو قوله تعالى (لعذبنا)أى لعذبنا الذين كفروا وقت جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية فيكون على الأول منصوب على المفعولية وعلى الثانى منصوب على الظرفية وقيل بمضمر تقديره أحسن الله اليكم اذ جعل .

ولما كانت السورة معظم آياتها جاء مذكرا ومصورا ماحصل للرسول صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فى عمرة الحديبية من المفاوضات والمراسلات حين أصر المشركون على أن يصدوا المسلمين عن دخول مكة ، لهذا أرى أن يكون القول الأول أقرب من غيره . والفاعل لجعل هو الاسم الموصول ، والمراد ذمهم بما فى حيز الصلة.

والمراد بالذين كفروا هم من كفر من أهل مكة ، والحمية الانفة والكبر قال الملمس(٢)

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ٢٦

(٢) هو لقب جرير بن عبد المسيح ، القاموس جـ ٢ ص ٢٥٩

ألا انني منهم وعرضي عرضهم .. كذا الرأس يحمي أنفه أن يكشما (١)

قال الراغب : حمى الحمى الحرارة المتولدة من الجواهر المحمية ، ومن القوة الحرارية في البدن وعبر بالقلب فجعله مكانا للحمية لان القلب هو مجمع الضغائن ومكانها كما أنه محل الحب والمودة كما قال تعالى (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) (٢) أي حب العجل ، فهو بيان لمكان حب العجل المذكور ، والمراد بالحمية المذمومة التي جعلوها في قلوبهم ، هي تعصبهم للباطل وتعصبهم ضد الحق وضد أهله المتمسكين به .

قال ابن جرير : رحمه الله تعالى - في معنى قوله : اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ..." حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذى كتب بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمشركين (بسم الله الرحمن الرحيم) قال : وكانت حميتهم التي ذكر الله أنهم لم يقروا آية بسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينه وبين البيت ، وذكر ذلك بسنده عن الزهري أيضا . (٣)

وحمية الجاهلية بدل من حمية الاولى أى حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية التي ألقوها في قلوبهم فهي راسخة وثابتة ومتأصلة في تلك القلوب الحاقدة على الحق وأهله ، ولهذا أقسموا باللات والعزى أن لا يدخل عليهم

---

(١) الكشم القهر كالاكشم وقطع الانف باستئصال . القاموس ج ٤ ص ١٧٣
(٢) سورة البقرة الآية رقم ٩٣
(٣) تفسير الطبرى ج ٢٦ ص ٦٦

محمد صلى الله عليه وسلم والصحابة مكة عنوة قالوا كيف يتحدث العرب أن محمدا صلى الله عليه وسلم دخل علينا ؟ فالحمية التى جبلوا عليها ليست عن عقيدة ولا عن مبدأ سليم بل انما الدافع لحميتهم هو الحقد والكبر ، والبطر والتعنت البغيض الذى جعلهم يقفون فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين مانعين لهم من الدخول الى بيت الله العتيق ، فلم يراعوا قداسة البيت وانتهكوا حرمة الأشهر الحرم حيث صدوا المسلمين فى ذى القعدة عن زيارة البيت فماذا كان موقف الرسول من هذه الاستفزازات ؟

كان موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هذه الاستفزازات الجاهلية الحاقدة عدم الاكتراث بها وعدم مقابلتها بالمثل ، بل ظلت فكرة السلم والبعد عن الحرب والحرص على صون الدماء داخل الحرم هى الفكرة السائدة عنده عليه الصلاة والسلام . وكان يبتعد دائما عن كل وسيلة من شأنها أن تهيج الحرب بينه وبين هؤلاء الأعداء ذلك لأنه لم يأت لحرب ولا رغبة له فيها ، وظل شعاره وهدفه الأول دعوة القوم - بالتى هى أحسن - وبالحكمة والموعظة الحسنة - الى السلام والسلم والاسلام فى كل حديث أو حوار يجرى معه ، وطيلة اقامته فى الحديبية يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألونى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ، لا شك أنه التزم الهدوء هو وصحابته أمام التحديات القرشية وعالج الموقف المتوتر بثبات واطمئنان ، فان الله سبحانه وتعالى حمى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه مما اتصف به أعداؤهم من التهور وأنزل الله السكينة عليهم فلامست قلوبهم ورضوا بالخطة التى رسمها القائد

الملهم في جميع الامور كيف لا ؟ وهو مستمد ذلك كله من فيوضات الوحي الالهي . واقتنع الصحابة -رضي الله عنهم- بأن الصلح مع العدو هو الحل الوحيد الى الوصول الى هدفهم المنشود لديهم وهو نشر الدعوة الاسلامية والفتح الاسلامي في كل مكان ، وان تأخر ذلك عن الوقت الذى كانوا فيه الى وقت قريب . ولهذا قال تعالى (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما) .
وقد تقدم معنى السكينة وأنها الهدوء والاطمئنان .

(وألزمهم كلمة التقوى) الالزام مصاحبة الشيء للشيء دائما .
قال الراغب : لزمه يلزمه لزوما ، ولزوم الشيء طول مكثه والالزام ضربان : الزام بالتسخير من الله تعالى أو من الانسان والزام بالحكم والأمر ، نحو قوله تعالى (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) . (١)

وعلى هذا المعنى اللغوى فالله سبحانه ألهم المؤمنين الالتزام والمداومة والتقوى في اللغة مشتقة من التقية وهي ما يتقى به الدارع الضرب كالجنة أو الترس ومنه قول الشاعر :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه .. فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب (٢) رخص البنان كأنه .. عنم يكاد من اللطافة يعقد

---

(١) مفردات غريب القرآن للاصبهاني ج ١ ص ٤٥٠
(٢) رخص البنان أي ناعم الاصابع : القاموس المحيط ج ٣ ص ٣١٦

والتقوى فى مصطلح الشرع العام هو امتثال الاوامر واجتناب النواهى .

وقد اختلف المفسرون فى كلمة التقوى الى عدة معان :

فقال الجمهور : هى كلمة (لا اله الا الله) وروى ذلك مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم رواه الترمذى رحمه الله تعالى قال : حدثنا الحسن بن قزعة البصرى أخبرنا سفيان بن حبيب عن شعبة عن ثوير عن أبيه عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم (وألزمهم كلمة التقوى) قال : لا اله الا الله) قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا الا من حديث الحسن بن قزعة ، وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعا الا من هذا الوجه (١) .

ورواه ابن جرير الطبرى بهذا الاسناد عن الطفيل عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (وألزمهم كلمة التقوى) قال : لا اله الا الله . (٢)

ورواه عن على رضى الله عنه موقوفا عليه بزيادة "الله أكبر" .

وروى عن ابن عباس كلمة التقوى شهادة أن لا اله الا الله .

وذكره السيوطى عن عكرمة قال : (وألزمهم كلمة التقوى) قال : لا اله الا الله

وذكر السيوطى أنه روى أحمد عن عمران مولى عثمان عن عثمان - رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انى لاعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه الا حرمه الله على النار ، قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه أنا أحدثكم

(١) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى جـ ٩ ص ١٥

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢٦ ص ٦٧

ما هي كلمة الاخلاص التي ألزمها الله محمدا وأصحابه وهي كلمة التقوى التي حض عليها نبي الله عمه أبا طالب عند الموت (شهادة أن لا اله الا الله) (١)

وروى الطبري بسنده عن علي الازدي قال : كنت مع ابن عمر بين مكة ومنى سمع الناس يقولون : لا اله الا الله والله أكبر فقال : هي هي فقلت ما هي ؟ قال : (وألزمهم كلمة التقوى) الاخلاص وكانوا أحق بها (٢) .

وقال بعضهم : هي بسم الله الرحمن الرحيم وأخرجه الطبري عن الزهري وذكر عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

وقيل المراد بكلمة التقوى هنا في هذه الآية : الوفاء بالعهد ، وعن عطاء بن أبي رباح هي لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . (٣)

قلت : وما قاله الجمهور في معنى كلمة التقوى هنا أولى من جميع الأقوال الباقية الأخرى لأن لا اله الا الله هي كلمة الاخلاص وهي كلمة التوحيد التي بعث من أجلها الرسل وهي التي كانوا يدعون الناس اليها ، وهي التي أمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الناس حتى يقولوها فاذا قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم وأعراضهم الا بحقها ، ولا شك أن من نطق بالشهادتين وعمل بمقتضاهما أنه يكون آتيا بهذه المعاني التي مر ذكرها آنفا لأنه لا بد أن يكون وافيا بالعهد

---

(١) الدر المنثور للسيوطي جـ ٦ ص ٨٠
(٢) ابن جرير الطبري جـ ٢٦ ص ٦٧
(٣) تفسير ابن كثير أبو الفداء عماد الدين جـ ٤ ص ١٩٤

كما أنه لابد أن يكون ناطقا باسم الله" بسم الله الرحمن الرحيم" فكلمة التوحيد جامعة لذلك وهي لا اله الا الله محمد رسول الله .وأضيفت الكلمة الى التقوى لانها سببها وأساسها والضمير فى قوله (وكانوا) راجع الى الرسول صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، وهومعطوف على الضمير فى " الزمهم" ويجوز أن يكون حال من الضمير المذكور .

وأحق أفعل تفضيل والمفضل عليه محذوف أى أحق بها من كفار مكة أو من غيرهم ، فيدخل فيها كفار مكة دخولا أوليا ، واستحق الصحابة رضى الله عنهم هذا التفضيل لأن الله اختارهم لنصرة دينه وصحبة نبيه - صلى الله عليه وسلم . فهم أهل لا اله الا الله المستأهلين لها أى كانوا كذلك فى علم الله وسابق قضائه .

(وكان الله بكل شئ عليما) فيعطى كلا مايستحقه فهو تذييل صالح لكل ماذكر. قال الامام الرازى فى هذه الآية لطائف معنوية منها أنه تعالى أبان غاية البون بين المؤمنين والكافرين حيث جعل الفاعل فى " جعل " هو الكفار أما فى "أنزل" فالفاعل فيها هو الله سبحانه وتعالى كما أن هناك فرقا فى الفعلين " جعل" "وأنزل" فالحمية مجعولة فى الحال كالعرض الذى لا يبقى والسكينة كالمحفوظة فى خزانة الرحمة فأنزلها . والحمية قبيحة مذمومة فى نفسها وازدادت قبحا باضافتها الى الجاهلية ، والسكينة حسنة فى نفسها وازدادت حسنا باضافتها الى الله عز وجل والآيتان قد صورتا لنا ما اتصف به المشركون مع ما مضى من سياق السورة من الكفر والحقد على المؤمنين بالله حيث أدى بهم ذلك الى عدم المحافظة على مكانة البيت الحرام حيث انه لم يصد من قصده لا فى جاهلية ولا فى اسلام قبل هؤلاء

ولا سبق أن رد ما يهدى اليه طعمة لمساكينه ، لكن هؤلاء الكفار كفار مكة فعلوا هذه الخصال القبيحة بدافع حميتهم الجاهلية ، والاشر والبطر والكبر . مما كاد أن يحمل المسلمين على قتالهم والبطش بهم لا لأجل التعدى عليهم فى نفوسهم وانما لحمية الايمان والغيرة على حرمات الله ، ولاجل أداء الشعائر الدينية ، لكن الله سبحانه منع ذلك بلطفه منزلا فى قلوب المؤمنين الاطمئنان والصبر والهدوء ، وأحل محل الحقد القوة والسكينة وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أهلا لها بفضل الله عليهم وكان هذا تكريما لهم من الله عز وجل بجانب كونه امتنانا عليهم .

وكان الله ذا علم لا يخفى عليه شيء هو كائن ولعلمه عز وجل بما يحدث من جراء الحرب لو دخل المسلمون مكة وبها أولئك المؤمنون المستضعفون لما يصيبهم على أيدى اخوانهم المجاهدين من القتل والوطء لهم لعلمه تعالى بذلك كله أخر الله دخول مكة الى العام القادم لما فيه من المصالح الكثيرة للمسلمين عموما .

قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) . (١)

ذكر بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا فى المنام قبل خروجه الى مكة انه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه محلقين شعورهم البعض منهم وبعضهم مقصرين فبشر أصحابه فسروا بذلك الخبر كثيرا

---

(١) سورة الفتح آية ٢٧

وحسبوا أن يكون تحقيقه ذلك العام الذى خرجوا فيه الى مكة فلما حصل ما حصل من صدهم عن البيت ونحر الهدى دون محله وتم عقد الصلح قال بعض الناس وأين رؤياه التى رأى أنه يدخل مكة ؟ فأنزل الله تعالى : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) . (١)

وذكر الطبرى بسنده عن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) قال : أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين فقال أصحابه حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ (٢)

وقال ابن كثير كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما وقع الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع فى بعض نفوس الصحابة من ذلك شىء حتى سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال : لا ، قال : النبى صلى الله عليه وسلم : فانك آتيه ومطوف به .

وبهذا أجاب الصديق رضى الله عنه ، قال : ولهذا قال تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) . (٣)

وما ذكره ابن كثير من كون الرؤيا وقعت فى المدينة هو القول الراجح لأن الرؤيا من أهم

---

(١) تفسير الخازن مع حاشيته للبغوى بتصرف جـ ١٦ ص ٢١٣
(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٠١ المفردات فى غريب القرآن الراغب الاصبهانى ص ٢٩

الدوافع للخروج الى مكة فى ذلك ورؤيا الأنبياء قسم من الوحى .

وأصل الرؤيا ما يرى فى المنام وهى على وزن فعلى وقد تخفف الهمزة فيقال بالواو

وقد روى (لم يبق من مبشرات النبوة الا الرؤيا) (١) .

وقوله (بالحق) قال الالوسى : صفة لمصدر محذوف أى صدقا متلبسا بالحق (٢)

وجواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة للقسم هو قوله (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقوله آمنين ومحلقين ومقصرين ، أحوال مقدرة فهو مثل قوله (لا تخافون) لانهم حين الدخول للمسجد ليسوا كذلك ، أى ليسوا مقصرين ولا محلقين ، وقيل : ان بالحق حال من الرؤيا أى هذه الرؤيا متلبسة بالحق وليست من قبيل أضغاث الاحلام .

(اختلاف المفسرين فى معنى الاستثناء فى هذه الآية)

قال ابن كثير قوله (ان شاء الله) هذا من تحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء فى شىء (٣) .

وذكر أبو عبيدة وابن قتيبة أن ان بمعنى اذ ، وقال ثعلب هذا تعليم للعباد بأنهم يستثنون فيما لا يعلمونه ، وعلى هذا يكون المعنى أنه سبحانه وتعالى علم أنهم يدخلون ولكن استثنى على ما أمر به العباد من الاستثناء فيما لا يعلمون .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن الراغب الاصبهانى ص٢٩٠
(٢) روح المعانى للالوسى جـ ٢٦ ص ١٢٠
(٣) ابن كثير فى تفسيره جـ ٤ ص ٢٠١

وقيل : ان المعنى لتدخلن المسجد الحرام ان أمركم الله به قاله الزجاج

وقيل الاستثناء يعود الى دخول بعضهم لانه تعالى علم أن منهم من يموت

حكاه الماوردى .

وقيل انه على وجه الحكاية لما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام أن قائلا يقول له " لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله" قاله القاضى أبويعلى .

وقول آخر للثعلبى أنه يعود الى الأمن والخوف ، أما الدخول فلا شك فيه (١) .

أقول وعلى كل حال ومهما اختلفت الاقوال فان الله تعالى .. قد حقق وصدق للنبى صلى الله عليه وسلم ما رآه فى تلك الرؤيا فهى وان كانت متأخرة عن العام الذى خرجوا فيه لحكمة يعلمها الله وقد بينها فيما بعد ، الا أنها لتوكيد وقوعها وحصولها جعلها كالشئ الذى وقع وحصل ، ولهذا عبر عنها بالماضى لتحقيق ذلك فى علمه تعالى وسابق أزله ، سواء كان الاستثناء من قبيل الحكاية للرؤيا أم كان على أى وجه من الوجوه المذكورة فقد طمأن الله تعالى عباده المؤمنين بنزول هذه السورة عقب عقد الصلح والرجوع بدون الطواف بالبيت ، فهى بشرى لهم بالوعد الصادق ، وقد حصل ذلك الوعد بعد هذه الرؤيا بعام واحد ، فدخل المسلمون البيت الحرام وطافوا وسعوا مطمئنين آمنين لا يخافون أحدا الا الله الذى حقق لهم ذلك الوعد وشفى النفوس المشتاقة الى بيته الحرام والطواف به حتى أخلى لهم مكة من قريش الى غاية انتهائهم من عمرتهم كما هو متفق عليه بينهم

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج محمد الجوزى جـ ٧ ص ٤٤٢ ط المكتب الاسلامى

وبين المسلمين فى الشروط ، قال صاحب التفسير الحديث : وفى الآية كما هو ظاهر تأييد للروايات المروية أن النبى صلى الله عليه وسلم انما اعتـزم الخروج لزيارة الكعبة استلهاما من رؤيا رآها فى منامه ورؤياه حـق ، وهذا الذى جعل بعض المسلمين يذهلون حينما انتهى الموقف بدون تحقيق هذه الزيارة فى هذه الرحلة ، وقد استهدفت الآية التصديـق والتثبيت مع الوعد الربانى بتحقيق الرؤيا ، ولقد تحقق الوعد الربانى فتمت الزيارة فى العام القابل حسب الاتفاق ، وطاف المسلمون آمنين ، فكـان ذلك معجزة من معجزات القرآن (١) .

قوله تعالى (آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) آمنين من الأمن وهو عدم الخوف : أى أنه حين دخولكم المسجد الحرام ثابت لكم الامان ، منـفى عنكم الخوف من المشركين لأن ذلك له أثر عظيم فى أداء العبادة بخشوع واطمئنان . والحلق أخذ شعر الرأس كله والتقصير أخذ جزء منه ، وقد ثبت فى السنة المطهرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه دعا للمحلقين بالرحمة ثلاثا فقال الصحابة يا رسول الله : والمقصرين قال والمقصرين فى المرة الرابعة ،

وقال الالوسى رحمه الله : استدل بالآية على أن الحلق غير متعين فى النسك بل يجزىء عنه التقصير ، وظاهر تقديم الحلق على التقصير يدل على أنه أفضل منه ، وقد جاءت السنة بذلك .

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزه جـ ١٠ ص ٢١٤

فقد روى الشيخان وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم استغفر للمحلقين ثلاثا قيل يا رسول الله والمقصرين قال : والمقصرين ، هذا فى الرجال ، أما النساء فليس عليهن الا التقصير، فقد روى النسائى وأبوداود عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ليس على النساء حلق وانما عليهن التقصير. (١)

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحقق وعد الله له ثم كان الفتح فى العام الذى بعد عام القضاء فلقد ظهر الدين الحق فى مكة ثم ظهر فى الجزيرة كلها ، ثم أظهره الله على الدين كله فى سائر أقطار الأرض ، واتضح جليا للمسلمين الذين مع النبى صلى الله عليه وسلم أنه يصدع بأمر ربه وأنه يتبع خطة سياسية موفقة وضع له أسسها رب العالمين ، وكان صلى الله عليه وسلم واثقا من نصر الله عز وجل له لأنه يسير تحت عناية من الله تعالى .

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لما عارض بعض الصحابة على وضع الشروط فى الصلح كعمر - رضى الله عنه - فأجابه بجواب الواثق من ربه المتيقن بنصره وأن الله مدبر أمره (انى عبد الله ورسوله ولن يضيّعنى " .

وروى عن عمر أنه قال : (ما شككت منذ أسلمت الا يومئذ فما زلت أصوم وأستغفر الله وأتصدق من الذى صنعت يومئذ ، وقد مر ذلك فى ذكر عقد

---

(١) روح المعانى للالوسى جـ ٢٦ ص ١٢٠

الصلح مع سهيل بن عمرو ،فكان صلى الله عليه وسلم يعلم من ربه تحقيق ما وعده به ،وهذا واضح من تذييل الآية بقوله (فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) . علم سبحانه أن الصلح وتأخير الدخول الى مكة الى العام القابل خير لهم ،كما علم سبحانه ما فيه الصلاح وهو فتح خيبر هذا العام ،وما ناله المسلمون من الغنائم . أى علم سبحانه أن ما جعله من دون تحقيق الرؤيا ودخول المسجد الحرام آمنين أصلح لكم فتح خيبر.

ولا شك أن فى الآية بشرى لهم وتسلية على ما فاتهم فى العام الذى خرجوا فيه مما كانوا يؤملونه بناء على ما بشروا به فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وما خرجوا من أجله .

قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) (١) .

بعد ما بين الله عز وجل أنه سيحقق رؤيا رسوله ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام وأنه سيدخل بيت الله الحرام هو وأصحابه آمنين طائفين مؤدين مناسك العمرة كاملة فى قوله (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) بعد هذا أكد ماأخبر به بقوله (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) . والهدى بضم الهاء وفتح الدال الرشاد والدلالة (٢) والمراد أنه يهدى ويرشد الى دين الاسلام الذى ارتضاه الله على جميع الأديان ،وأرسل به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ٢٨
(٢) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٠٧ ط بيروت

والباء للملابسة أى متلبسا بالهدى مصاحبا له والجار والمجرور متعلق بأرسل فهو صلى الله عليه وسلم رسول هاد الى الطريق المستقيم " ودين الحق " معطوف على الهدى أى وبدين الحق وهو دين الاسلام المطابق للواقع وللفطرة السليمة فيكون العطف عطف تفسير ،فما دام هو الذى أرسله للناس كافة لغرض اظهار دينه فلا يعجزه عز وجل أن يحقق لنبيه ما رآه من دخول البيت الحرام واظهار دينه وقد حصل ذلك بما حصل من فتح مكة وغيرها من البلاد حتى دانت الجزيرة العربية للاسلام ،بل وامتد نفوذه الى أقطار الأرض فلم يمض نصف قرن على تاريخ الدعوة المحمدية حتى ظهر الدين الاسلامى فى امبراطورية كسرى كلها ،وفى قسم كبير من الامبراطورية القيصرية . ولم يقف عند هذا الحد ،بل بلغ أجزاء المعمورة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بلغ فى هذه المدة الوجيزة من الزمن .

وسبب ظهور هذا الدين أن الرجال الذين حملوه كانوا مخلصين فى دعوتهم ،وأنه هو دين الفطرة السليمة فعرف هؤلاء المدعوون أن هذا الدين صالح لكل البشرية ملائم لجميع التطورات والحضارات بجميع أشكالها علموا ذلك لما رأوا من استقامة أهله وحملته وعدالتهم ورحمتهم بمن يدعون، وها هو التاريخ يشهد أن الاسلام حول معتنقيه من سكان الأكواخ وبيوت الشعر الى أن مدّنوا المدن ومصّروا الأمصار ،وأقاموا حضارة اسلامية مزدهرة كان لها شأن عظيم فى ترسيخ الاسلام وارساء قواعده .

وقد جنى المسلمون ثمار هذه الحضارة فى جميع ميادين الحياة ثقافة وغيرها .

فالدين الاسلامى دين قوة وحضارة ، وتطور فهو بلا شك صالح لكل زمان ومكان . كيف لا ؟ وهو تنزيل من حكيم حميد ، أنزله من يعلم السر وأخفى ويعلم مايصلح لعباده مهما تطور الزمن ، ومامن صاحب دين غير دين الاسلام ينظر فى الاسلام نظرة مجردة عن التعصب والهوى الا ويقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة - قيادة مرنة - صالحة للتطور والازدهار ، مسايرة ركب الحضارة .

ولهذا كثر معتنقوه وظهر على جميع الأديان التى كانت تقف أمامه محاربة له . ولهذا وصفه الله بأنه دين الحق ، وأضافه اليه سبحانه فقال جل من قائل عليما (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) لأن الأديان التى بغير حق كثيرة ومتعددة .

قال الزمخشرى : فى معنى قوله تعالى (ليظهره على الدين كله) أى ليعليه على جنس الأديان ، يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين وأهل الكتاب .

ولقد حقق - الله - ذلك ، فانك لا ترى دينا قط الا وللاسلام دونه العز والغلبة . (١) . وهذا هو الظاهر من المراد بظهور الاسلام المذكور فى هذه الآية ، فقد ظهر الدين الاسلامى على كل الأديان ، وغلب عليها كما هو مشاهد ، وقيل ان الظهور يكون بعد نزول عيسى عليه السلام عندما

---

(١) الكشاف للزمخشرى ج ٣ ص ٥٥٠

يقتل الدجال فتبطل جميع الأديان الا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

والقول الأول هو الذى أميل اليه من جميع تلك الأقوال .

قال الالوسى : وجوّز غير واحد - ولعله - الأظهر بحسب المقام أن يكون اظهاره على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهل الأديان وقالوا : ما من أهل دين حاربوا المسلمين الا وقهرهم المسلمون ، ويكفى فى ذلك استمرار ما ذكر زمانا معتدا به ، كما لا يخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع . (١)

قلت : وهذا الذى ذكر الالوسى يؤيد ما ذكرته أولا وهو الذى قد رجحته ، وقد ذكر الله عزوجل فى غير ما آية من كتابه اظهار دينه الذى أرسل به محمدا صلى الله عليه وسلم . قال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (٢) . وقال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (٣) . وقوله تعالى (وكفى بالله شهيدا) أى يكفى شهادة الله تعالى أنك يا محمد رسول الله ، ويكفى شهادته عز وجل على أنه - رسول الله - قال الاصبهانى - الكفاية ما فيه سد الخلة وبلوغ المرام فى الأمر ، وقوله (وكفى بالله شهيدا) كقوله تعالى (وكفى الله المؤمنين القتال) ، وكقوله تعالى (انا كفيناك المستهزئين) ويقال كافيك فلان من رجل أى حسبك (٤)

---

(١) روح المعانى للالوسى جـ ٢٦ ص ١٢٢ - ١٢٣

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٣٣

(٣) سورة الصف الآية رقم ٩

(٤) مفردات القرآن (الاصبهانى) ص ٤٣٧ والقاموس جـ ٤ ص ٣٨٥

والمعنى حسبك بالله شهيدا على نفسه أنه أرسلك ، وعن الحسن شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله ، وان أنكر ذلك المنكرون وجحده الجاحدون .

وفي الآية امتنان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وللمؤمنين معه لما فعله سهيل من رفضه كتابة محمد رسول الله في كتاب المعاهدة وقوله (لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك ، فأثبت الله صدق رسالته وتصديق رؤياه واظهار دينه .

(وصف جميل للرسول صلى الله عليه وسلم)

(وأصحابه وثناء حسن عليهم)

قال الله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) (١)

قوله : محمد : مرفوع على الابتداء خبره رسول الله ، وقيل : انه خبر مبتدأ محذوف تقديره أي هو محمد ، وفيه توكيد للآية السابقة (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) .

ورسول الله عطف بيان أوصفة ، والذين معه مبتدأ ، وأشداء خبر ، ورحماء خبر ثان ، والذين معه أصحابه ، وقيل : أهل الحديبية ، والعموم أولى والرسول داخل معهم في ذلك . وأشداء جمع شديد ، ورحماء جمع رحيم والمعنى فيهم غلظة على أعدائهم ورحمة على اخوانهم .

وعن الحسن : بلغ من شدتهم على الكفار أنهم كانوا يحترزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم وأبدانهم أن تلمس أبدانهم ، وبلغ من رحمتهم فيما بينهم أنه لا يلقى مؤمن مؤمنا الا صافحه وعانقه .

قال بعض العلماء معلقا على قوله تعالى (رحماء بينهم) هذا تكميل ، لو لم يذكر

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ٢٩

لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك سجية لهم فى كل حال وعلى كل أحد ، فلما قال (رحماء بينهم) عند غذ اندفع ذلك التوهم فهو تكميل واحتراس من توهم مصاحبة الفظاظة والغلظة مطلقا ، فهم مع كونهم أشداء على الأعداء فى نفس الوقت رحماء بينهم كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) (١)

والمراد بكونهم أذلة هنا أنهم رحماء بالمؤمنين ، فالمؤمن يكون ليّن الجانب لأخيه المؤمن بشوشا فى وجهه ، وقد جاءت عدة أوصاف عن الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين مثل قوله : مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى لهسائر الجسد بالحمى والسهر ، وقال : فى حديث آخر : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وهكذا نجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصف المؤمنين بالتراحم فيما بينهم والتماسك ، وفى نفس الوقت نجد المؤمنين أشداء على الكفار أصحاب غلظة عليهم ، ولهذا قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) (٢) .

فالصحابة رضى الله عنهم جمعوا بين صفة المحبة والأخوّة الصادقة لاخوانهم

---

(١) من سورة المائدة الآية رقم ٥٤

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٢٤

المؤمنين ، وبين الغلظة والفظاظة على الكفرة والمشركين فهم كما قال الشاعر:

حليم اذا ما الحلم زين أهله .. على أنه عند العدو مهيب

قال تعالى (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) (تراهم) أى تشاهدهم فالرؤيا بصرية والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤيا (ركعا سجدا) أى راكعين ساجدين ، والمراد الصلاة لكثرتها عندهم ، وهى أحوال من الضمير المفعول فى (تراهم) يبتغون فضلا من الله ورضوانا) يطلبون ثواب الله تعالى ورضاه عزوجل عنهم فكأنّ سائلا سأل ماذا يريدون فقيل : يبتغون فضلا من الله ، قال ابن كثير - رحمه الله - وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهى خير الأعمال ، ووصفهم بالاخلاص فيها لله عز وجل" (١) .

قوله تعالى (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) السيما والسيمة العلامة التى توضع على البعير أو الشاة ليعرفا بها ، ويقال سيمياء بزيادة ياء بعد الميم وهى لغة فصيحة وردت فى الشعر العربى قال الشاعر :

غلام رماه الله بالحسن يافعا .. له سيمياء لا تشق على البصر

قال صاحب القاموس : السومة بالضم السيمة والسيماء والسيمياء العلامة وسوم الفرس تسويما جعل عليه علامة (٢) .

وقال الراغب : السيماء والسيمياء العلامة وقال تعالى (سيماهم فى وجوههم) وقد سومته أى أعلمته ، ومسوّمين أى معلمين لأنفسهم أو خيولهم (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٠٤
(٢) القاموس المحيط الفيروزابادى ج ٤ ص ١٣٥
(٣) مفردات غريب القرآن ص ٢٥١

والمراد بالسيما هنا الأثر الذى يحدث فى جبهة الساجد من كثرة السجود قال به الزمخشرى ، وقال ابن جرير : قوله سيماهم فى وجوههم من أثر السجود يقول : علامتهم فى وجوههم من أثر السجود فى صلاتهم ، وذكر بسنده عن ابن عباس قال : صلاتهم تبدو فى وجوههم يوم القيامة ، وأخرج عن الحسن (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) قال : بياضا فى وجوههم يوم القيامة وقيل بل ذلك سيماء الاسلام وسمته وخشوعه ، وذكر عن مجاهد أنه الخشوع والتواضع ، ... وعن ابن عباس اما انه ليس بالذى ترونه ولكنه سيماء الاسلام وسحنته (١) وسمته وخشوعه . (٢) .

وقيل : ان السيماء المذكورة هى صفرة تبدو على الوجه من أثر السجود والتهجد بالليل . رواه ابن ماجه مرفوعا ، قال : حدثنا اسماعيل بن محمد الطلحى قال حدثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار) (٣) .

قال السندى فى الحاشية معنى الحديث ثابت بموافقة القرآن وشهادة التجربة لكن الحفاظ على أن الحديث بهذا اللفظ غير ثابت وذكره ابن كثير ثم قال : والصحيح أنه موقوف (٤) ومثل ابن الصلاح به لمن وقع فى شبهة الوضع فقال :

---

(١) السحنة اللون الذى فى الوجه أو الهيأة
(٢) تفسير ابن جرير ج ٢٦ ص ٧٠
(٣) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٢٢ ط الحلبى
(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٠٤

ربما غلط الراوى فوقع فى شبهة الوضع من غير تعمد كما وقع لثابت بن موسى الزاهد فى حديث من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. (١)

وقد بين السخاوى سبب الغلط فى شرحه لألفية العراقى ، قال : انما دخل (يعنى ثابت بن موسى) على شريك وهو فى مجلس املائه عند قوله : حدثنا الاعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذكر المتن الحقيقى لهذا السند ، أو ذكره حسبما اقتضاه كلام ابن حبان وهو (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم) فقال شريك متصلا بالسند أو بالمتن حين نظر الى ثابت من كثرت صلاته بالليل الخ قاصدا بذلك مداعبة ثابت لزهده وورعه وعبادته ، فظن ثابت أن هذا متن ذاك السند أو بقية المتن لمناسبته له فكان يحدث به كذلك (٢) .

وقال ابن العربى (٣) دسه قوم فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف .
ومعنى الحديث ثابت فان الله تعالى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن لهم سيماء يتميزون بها عن غيرهم وهى علامة صلاح وتقى وورع تظهر على وجوههم ، وهو مشاهد فى بعض الصالحين من عباد الله فان الصالح يعرف بنضارة وجهه وسمته بخلاف غيره من المتهاونين بالصلاة

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٩٠

(٢) فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقى ، ضبط وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان جـ ١ ص ٢٤٧ ط الثانية ١٣٨٨ هـ

(٣) أحكام القرآن لابن العربى جـ ٤ ص ١٦٩٨ ط الاولى سنة ١٣٧٨ هـ

والتاركين لها فلا يشاهد عليهم سيماء الصالحين ، وتراهم ضيقي النفوس والاخلاق تبدو على وجوههم الكآبة من كثرة المعاصي ، ولأن المعصية تحدث قلقا في النفس وبلبلة وحيرة ، هذا عند من لم يطبع على قلبه أما من كثرت معاصيه كثرة فادحة ، بحيث أصبح لا يبالي ولا يتوب فان هذا لا يقشعر لشيء وكأنه ميت لا يتألم لاسوداد قلبه والطبع عليه ، والعياذ بالله . أما المؤمنون فان صلاتهم تنهاهم عن الفحشاء والمنكر قال تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

ومهما يكن من شيء فان الايمان الخالص يظهر على وجه صاحبه ، ويكوّن له محبة عند الله تعالى وعند خلقه ، بخلاف من يتكلف الايمان ويدعيه ويرائي به ، فلابد أن يظهر كذبه وفضيحته أمام الناس :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة .. وان خالها تخفى على الناس تعلم

ذكر ابن كثير من أقوال السلف في هذا الصدد ، قال بعضهم : ان للحسنة نورا في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس ، وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه (ما أسرّ أحد سريرة الا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ثم قال : والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن اذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس ، كما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته) .

وروى الامام احمد بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه قال : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا (١) .

وروى أبو داود فى باب الوقار قال : حدثنا النفيلى أخبرنا زهير أخبرنا قابوس بن أبى ظبيان أن أباه حدثه قال : حدثنا عبد الله بن عباس أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة . (٢) .

وهذا الحديث ذكره ابن كثير عن الامام احمد.

والمراد بالوقار هنا الرزانة والحلم ، والهدى الصالح : الطريقة الصالحة والسمت الصالح حسن الهيأة والمنظر الحسن فى الدين ، والاقتصاد المراد به هنا سلوك القصد فى الأمور القولية والفعلية ، قوله (جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة) قيل المراد أن هذه الخصال قد منحها الله أنبياءه فاقتدوا بهم فيها وتابعوهم عليها ، وليس معنى الحديث أن النبوة تتجزأ ، أو أن من جمع هذه الخصال كان فيه جزء من النبوة فان النبوة غير مكتسبة بالأسباب ، وانما هى كرامة من الله تعالى لمن أراد اكرامه بها من عباده وقد ختمها الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا نبى بعده .

والنبى والرسول بينهما عموم وخصوص من وجه ، فكل رسول نبى ولا عكس . وتعريف الرسول هو انسان ذكر من البشر أوحى الله اليه بوحى وأمره بتبليغه ، أما النبى فهو من أوحى اليه بوحى ولم يكلف بالتبليغ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٠٤

(٢) سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود جـ ١٣ ص ١٣٤

قال احمد المقرى :

وهو أى الرسول انسان ذكر .. أوحى له من لم تكيفه البشر

وقال بلغ من بعثت فيهم .. حكما دعوا اليه

فان يك الوحى بحكم قصرا .. عليه فالنبى فيما شهرا (١)

والحديث الذى تقدم فى اسناده قابوس بن أبى ظبيان قال فى **التقريب** (٢) فيه لين من السادسة ، وقال الخزرجى وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم لا يحتج به ، وقال النسائى ليس بالقوى ، وقال ابن عدى : أرجو أنه لا بأس به (٣)

قال تعالى (ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) الاشارة فى قوله (ذلك) تعود الى ماسبق من الصفات الحميدة التى اتصف بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من شدتهم على من عاداهم وتراحمهم فيما بينهم ، وكثرة صلاتهم حتى أصبحت لهم علامات يعرفون بها بادية لكل رائ لهم ، وتلك العلامات هى ماأحدثه السجود فى جباههم من الاثر العظيم الذى يدل على كمال الخضوع وكمال العبودية لله سبحانه وتعالى فى أسمى صورها .

وقد أثبت الله لهم فى الكتابين السابقين - التوراة والانجيل - هذه الأوصاف الحميدة ، ولهذا قال (ذلك مثلهم فى التوراة (٤) ومثلهم فى الانجيل)

---

(١) اضاءة الدجنه

(٢) التقريب لابن حجر ج ٢ ص ١١٥

(٣) خلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال لاحمد بن عبد الله الخزرجى الانصارى المتوفى سنة ٩٢٣ ، الناشر مكتب المطبوعات بيروت

(٤) التوراة هو الكتاب الذى أنزل على موسى ، أما الانجيل فهو كتاب عيسى عليه السلام

هذا وما ذكر من الأوصاف السابقة هو وصفهم في التوراة وعليه فيكون الوقف على قوله تعالى (ذلك مثلهم في التوراة) ثم يكون الابتداء من قوله (مثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره) .

وذكر القرطبي عن ابن عباس قال : هما مثلان أحدهما في التوراة ، والآخر في الانجيل (١) ورجح هذا القول ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - والجمهور من المفسرين مؤيدون لهذا القول حيث قالوا : ان سيماهم في وجوههم وما قبله هو مثلهم في التوراة . وممن قال به الضحاك وقتادة وابن زيد (٢) .

وقيل : ان المثلين في التوراة والانجيل متحدان ، وعليه يكون الوقف على (الانجيل) .

ورواه ابن جرير وغيره عن مجاهد ، قال : مثلهم في التوراة والانجيل واحد . ورده ابن جرير حيث قال : لو كان القول كما قال مجاهد : من أن مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل واحد : كان التنزيل ، ومثلهم في الانجيل و كزرع أخرج شطئه فكان تمثيلهم بالزرع معطوفا على قوله : (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) حتى يكون ذلك خبرا عن أن ذلك مثلهم في التوراة والانجيل ، وفي مجيء الكلام بغير واو في قوله (كزرع) دليل بيّن على صحة ما قلنا وأن قوله (ومثلهم في الانجيل) خبر مبتدأ عن صفتهم التي

---

(١) القرطبي في تفسيره ج ١٦ ص ٢٩٤

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ج ٢ ص ٧٢

هي في الانجيل دون ما في التوراة منها (١) .

وعن ابن عباس كما ذكره ابن جرير بسنده قال : (فآزره) يقول : نباته مع التفافه حين يسنبل ؟ (ذلك مثلهم في التوراة) ومثلهم في الانجيل ، مثل ضرب لأهل الكتاب اذا خرج قوم ينبتون كما ينبت الزرع فيبلغ فيهم رجال مؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم يغلظون ، فهم أولئك الذين كانوا معهم وهو مثل ضربه الله لمحمد صلى الله عليه وسلم يقول : بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم وحده ثم اجتمع اليه ناس قليلون ثم يكون القليلون كثيرين ثم يستغلظون ويغيظ الله بهم الكفار . (٢) .

قال تعالى (كزرع أخرج شطئه) فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) (٣)

قال في القاموس (٤) : الشطء فراخ النخيل والزرع أو ورقه جمعه شطوء ، وشطأ كمنع شطئا وشطوا ، ومن الشجر ما خرج حول أصله ويجمع على أشطاء .

وقال الراغب الشطء فروخ الزرع وهو ما خرج منه وتفرع في شاطئيه أي في جانبيه وجمعه أشطاء قال الله تعالى (كزرع أخرج شطئه) (٥) أي فراخه ، (فآزره) قواه وأحاطه قال تعالى على لسان موسى : (هارون أخي اشدد به أزري) أي أتقوى به فالأزر القوة ، ويقال : أزرت البناء وآزرته قويت أسافله وتأزر

---

(١) تفسير ابن جرير المصدر السابق جـ ٢٦ ص ٧٢
(٢) نفس المصدر والصفحة
(٣) سورة الفتح الآية رقم ٢٩
(٤) القاموس جـ ١ ص ١٩
(٥) المفردات الراغب في مفرداته ٢٦١

النبات طال وقوى والموءزرة المعاونة (١) قوله تعالى (فاستغلظ)الغلظة ضد الرقة ويقال : غِلظة وغُلظة وأصله أن يستعمل فى الأجسام ، وقد يستعمل فى المعانى كالكبير والكثير قال تعالى (وليجدوا فيكم غلظة) (٢) أى خشونة ، واستغلظ تهيأ لذلك قال تعالى (فاستغلظ فاستوى على سوقه) (٣) .

(فاستوى على سوقه) استقام على قصبه واعتدل ، وسوقه جمع ساق وساق الشجرة جذعها ، وقد شبههم الله تعالى بالبذرة تخرج وحدها ثم تتقوى بما يلتف حولها من فروعها حتى تتقوى وتعجب الزراع ، وهذا مثل ضربه الله عز وجل لبدأ الاسلام وترقّيه فى الزيادة حتى قوى وانتشر ، فالنبى صلى الله عليه وسلم بدأ بالدعوة الى الله تعالى وحده ثم آمن معه من آمن كأبى بكر وعلى وعثمان ثم ازداد عددهم كما يزداد فروع الزرع كما هومشاهد فى الحنطة والشعير وغيرهما ، فان ساقها يتفرع الى فروع كثيرة ، وبكثرة الفروع تكثر السنابل حتى يعجب الناظر ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قليلين ، ثم ازدادوا كثرة حتى انهم كانوا فى صلح الحديبية أربع عشرة مائة بينما هم فى فتح مكة وصلوا الى عشرة آلاف مقاتل ، وخرجوا الى حنين وهم اثناعشر ألفا ، حتى أظهرالله دينه وأعلى كلمته بهوءلاء القلة من المسلمين ، ونصر بهم دينه وملكهم الأرض وأدان لهم ملوكها شرقا وغربا ورفرفت رايات الاسلام فى أرجاء المعمورة رغم كثرة أعدائه ، ولكن المسلمين كانوا كما وصفهم الله أذلة على المؤمنين

---

(١) نفس المصدر ١٧ والقاموس ج ١ ص ٣٧٧
(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٢٣
(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب ٣٦٢

أعزة على الكافرين قال تعالى (ليغيظ بهم الكفار) والغيظ هو مايصيب الانسان من قهر عدوه له .

قال ابن فارس : الغين والياء والظاء أصيل - في الغيظ - وهو يدل على كرب يلحق الانسان من غيره . يقال غاظني يغيظني وقد غظتني يا هذا ، والرجل غائظ وغياظ (١) .

وقال الراغب : (٢) الغيظ أشد غضب وهو الحرارة التي يجدها الانسان من فوران دم قلبه . قال تعالى (موتوا بغيظكم) وقد دعا الله الناس الى امساك النفس والصفح والصبر ومدح المتصفين بذلك عند اعتراء الغيظ .

قال تعالى (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) والمعنى الاجمالي لقوله ليغيظ بهم الكفار وما قبلها : أن يقال : ان الله سبحانه كثر الصحابة وحملة الدعوة بعد أن كانوا قلة وأعزهم بعد أن لم يكونوا كذلك لاجل ان يغيظ بهم الاعداء والكفار .

فقوله (ليغيظ بهم الكفار) جواب وقع في سؤال مقدر كأنه قيل لماذا كثرهم بعد قلتهم ، وقواهم بعد ضعفهم ، فكان الجواب ليغيظ بهم الكفار ، ولا شك أن نصر المؤمنين واعلاء كلمة الحق فيه غيظ وقهر للكافرين وفيه اغاظة لهم في نفس الوقت مع غلبتهم .

وفي رواية عن الامام مالك رحمه الله تعالى أنه أخذ من قوله عز وجل (ليغيظ بهم الكفار تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضى الله عنهم قال : لان الصحابة

---

(١) معجم مقاييس اللغة احمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ جـ ٤ ص ٤٠٥ تحقيق عبد السلام محمد هارون ط الثانية ١٣٩١ هـ

(٢) مفردات الراغب ص ٣٦٨

يغيظون الروافض ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية الكريمة .

وقد وافق الامام مالكا رحمه الله تعالى على هذا القول طائفة من العلماء رحمهم الله (١) .

أقول : وهذا القول وارد ومتجه لان النبى صلى الله عليه وسلم قال عليكم بسنة الذين من بعدى أبى بكر وعمر ، وفى رواية أخرى قال : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الأمور . . . الحديث (٢) . فمن طعن فى الصحابة أو لم يرض بامامة الشيخين فكأنه طعن فى السنة المحمدية ، ومن طعن فى السنة فهو كافر بلا شك ولا مراء ، ولا جدال فى أن من أعظم الطعن السب لجناب الصحابة - رضى الله عنهم ،

والمعروف عن الروافض وأشباههم أنهم يسبون الشيخين ويطعنون فى عدالتهما وهذا الذى عليه الروافض خلاف اجماع الامة - سلفا وخلفا فان اجماعها حاصل على توقير الصحابة والاعتراف بفضلهم ومزيتهم على الاسلام والمسلمين فهم الذين حملوا الدعوة وهم الذين بلغوا الاسلام ونصروا نبيه صلى الله عليه وسلم والتفوا حوله ناصرين له حتى بلغ الرسالة فلو لم يكن للصحابى من الفضل الا رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لكان ذلك كاف فى بلوغه الدرجة العليا فى الكمال على غيره ، فرؤيتهم للنبى صلى الله عليه وسلم وحدها خصلة فاقوا بها جميع الناس غير الصحابة ، فما بالك وهم لهم حسنات كثيرة كالجهاد ونصرة النبى صلى الله عليه وسلم والاثرة على النفس قال تعالى فى حقهم (ويؤثرون على أنفسهم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٠٤

(٢) سنن ابى داود مع شرحه عون المعبود جـ ١٢ ص ٣٦٠

ولو كان بهم خصاصة) (١) . ويتجلى هذا المعنى فى أسمى صوره لما هاجر المهاجرون الى المدينة تاركين أموالهم وأهليهم فى سبيل الدعوة واعلاء كلمة الله ، ووجدوا اخوانهم الانصار كما وصفهم الله (يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٢) فشاطر الانصارى أخاه المهاجر فى جميع ماله حتى بلغ بأحدهم أن عرض على أخيه المهاجر أن يطلق له احدى زوجتيه فاذا اعتدت تزوجها المهاجر ، فشكر له أخوه المهاجر ذلك ودعا له بخير ، ولكن لم يرض ذلك منه .

كما أنه بلغ من ايثار بعضهم البعض ، أنه فى غزوة أحد طلب أحد الشهداء ماء قليلا ليشرب منه فسمع أخاه يطلبه فامتنع منه وقال : أعطوه لاخى لعله أحوج منى الى الماء ، وأعطاه الثانى الثالث حتى رجعوا بالماء الى الاول فوجد قد فاضت نفسه ، ولم يشرب من الماء أحد لأن كل واحد كان يؤثر أخاه على نفسه ، ولهذا استحقوا بهذه الاوصاف الحميدة الثناء من الله تعالى فى غير ما آية من القرآن العظيم ، وجاء وصفهم بالاوصاف الحميدة فى التوراة وفى الانجيل كما أخبر المولى جل وعلا فى هذه السورة الكريمة .

فكيف يسب مؤمن من هذه أوصافهم ومزاياهم على الاسلام ونرى سلفنا الصالح كان ينهى عن الخوض فى الذى يقع بين الصحابة خوفا من الاثم .

ويروى عن مالك رحمه الله أنه كان يقول : تلك أمور طهر الله منها أيدينا فلنطهر منها ألسنتنا .

---

(١) سورة الحشر الآية رقم ٩

(٢) سورة الحشر الآية رقم ٩

قال صاحب اضاءة (١) الدجنة لما وصل فضل الصحابة وماخصهم الله بـــه :

ولا تخض فيما من الأمر اختلط .. بينهم واحذر اذا خضت الغلط

قال تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجـــــرا عظيما) (٢) .

وهكذا يختم الله هذه السورة بهذا الوعد العظيم فوعده سبحانه حق لا يتخلف ولا يتأخر عن موعده ، فهو عطاء منه سبحانه وتعالى لهؤلاء السعداء والصفوة الصالحة من عباده المؤمنين الذين جاهدوا فى الله حق جهاده وبذلوا أنفسهم ودماءهم وأموالهم فى سبيل الله ، وعدهم بأنه يغفر ذنوبهم ويؤتيهم فوق المغفرة الأجر العظيم وهذا تفضل منه سبحانه وتعالى فله الفضـــل أولا وآخرا وله الحمد فى الأولى والآخرة ، فهو سبحانه القائل فى محكم كتابه :

(وعد الله لا يخلف الله وعده) (٣) .

أما وعيده فانه سبحانه قد يعفو ويغفر للذين كانوا عصاة وكانوا متوعدين بالخطر (٤)

---

(١) هو العالم العلامة احمد المقرى المغربى

(٢) سورة الفتح الآية رقم ٢٩

(٣) سورة الروم الآية رقم ٦

(٤) قال علماء اللغة الوعد عند الاطلاق يطلق على الخير والوعيد يطلق على الشر ومنه قول الشاعر

فانى ان أوعدته أو وعدته .. لمخلف ايعادى ومنجز موعد

الخاتمــــــــة

نسأل اللـــــه حسنهـــا

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد :

انه لما تم البحث فى هذه الرسالة ، نعود فنلخص أهم ما توصلنا اليه فى أبحاثها من النتائج التى ظهرت لنا من سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم .

١ - ان النبى صلى الله عليه وسلم رسم لدعاة الخير والصلاح الطريقة المثلى فى الدعوة الى الله تعالى وذلك بعرضها على الناس باللين والحكمة وعلى الداعى أن لا ييأس من الاجابة ، ويتحمل ما يلاقيه من الأذى فى سبيل تبليغ دين الله الى الخلق كما رسم ذلك المعلم الاول صلى الله عليه وسلم .

٢ - أن الرسول لما قدم الى المدينة وأراد بناء الدولة الاسلامية فيها قام بتأمين الجانب الداخلى فيها حتى يمكنه التفرغ للعدو الخارجى ، وخير مثال لذلك المؤاخاة بين المهاجرين والانصار والمعاهدة مع اليهود .

٣ - أرسل الطلائع والسرايا تترصد له أخبار الاعداء ليكون على حذر من غدرهم ومكرهم .

٤ - أخذ بالرأى والمشورة فى بدر ونزل على الماء ولا ماء للعدو . واستشار أصحابه فى خوض الحروب مع أعدائه ، وحفر الخندق بمشورة سلمان الفارسى

لتقع فيه خيل العدو ويحصن به المدينة .

٥ - أمر نعيم بن مسعود رضى الله عنه أن يخذّل عن المسلمين ما استطاع الى ذلك سبيلا ، واتخذ فى ذلك الموقف سلاح التخذيل (الحرب خدعة) فكانت بحمد الله أهم أسباب نصر المؤمنين وهزيمة أعدائهم .

٦ - رأى فى السنة السادسة أن يزور بيت الله فأحرم بالعمرة وأمر أصحابه بالتجهز معه وساق معه الهدى ودعى الأعراب من القبائل التى تجاور المدينة الى صحبته ، وكان هدفه بذلك والله أعلم أنه لما كانت الحرب قائمة على أشدها بينه وبين قريش خشى أن تصده عن البيت لكن اذا رأت معه غيره عرفت صدقه وأنه يريد البيت ولا يريد حربها .
لكن تخلف عنه الاعراب ولم يستجيبوا لدعوته كما سبق بيانه من التنديد ولوم القرآن لهم ، ولم يثنه ما حصل منهم عن هدفه .

٧ - ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن قريشا سدت عليه الطريق بجيشها غير طريقه الى جهة الحديبية حتى لا يصطدم معهم بحرب وهو لا يريد ذلك فلو كان يريد الحرب لقابلهم .

٨ - أخبر وفودهم ومفاوضيهم بأنه انما جاء هو وأصحابه لاداء نسك العمرة ومعهم الهدى ينحرونه ويرجعون الى المدينة وأمر ببعث الهدى ليراه بعض وفودهم وقد أكل أوباره من طول الحبس .

٩ - أرسل وفودا من قبله ليفهموا قريشا مشافهة بقصده النبيل ويتصلوا بزعمائهم فيخلو بينه وبين البيت ، ومنهم عثمان بن عفان رضى الله عنه

على رأس وفد من الصحابة .

١٠- عفى عن مجموعة كبيرة من جنود المشركين أغاروا على المعسكر الاسلامى ليصيبوا منه غرة ويقتلوا نبى الله صلى الله عليه وسلم فأسرهم حراس المسلمين وأمر الرسول بعد أن حقق معهم وتأكد له أنهم ليسوا فى أمان أحد ولا عهد لهم .

فعل كل ذلك صلى الله عليه وسلم ليثبت لقريش انه يفضل السلم على الحرب ، ولا يحب سفك الدماء بمكة خاصة وهو لم يأت لذلك وانما جاء زائرا للبيت ومعظما له . ومكث ما يقرب من عشرين يوما محاصرا فى الحديبية هو وأصحابه حتى أن بعض الصحابة آذاه هام رأسه من القمل وهو كعب بن عجرة الذى نزلت بسببه آية فدية الأذى .

وكل هذه المدة وقريش لا تزال مصرة على تعنتها تريد رجوع المسلمين من حيث أتوا بدون قيد ولا شرط ، وتغلظ الايمان أن محمدا لا يدخلها علينا عنوة فتتحدث العرب انا أخذنا ضغطة ، فعند ذلك وبعد أن أشيع الى الرسول صلى الله عليه وسلم أن قريشا أضافت الى عنادها وتعنتها وتعصبها الجاهلى قتل مثله ومن هو من خيرة القوم . بدا له أنه لا تنفع معها المسايرة والملاينة ولا بد من اتخاذ القوة وحسم الموقف معها ، وقال : لابد من مناجزة القوم . (١) فأمر مناديه ينادى فى الصحابة : البيعة البيعة . فأخذ البيعة من أصحابه بكامل عددهم وبايعوه على الموت كما فى حديث سلمة بن الاكوع . فكان هذا تحول

---

(١) ذكره ابن اسحاق عن عبد الله بن أبى بكر ج ٢ص ٧٨٠ ط الحلبى

مفاجئ في سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم من السلم والمهادنة الى الحرب والمقاتلة ، وهي بيعة الرضوان التي نوه الله بها ورضي عن أهلها وأيدهم عليها كما مر بيانه في سورة الفتح .

وكانت نتيجة هذا التحول المفاجئ بأخذ البيعة الآتي :

١ - بدأت امارات التضحية والفداء والشجاعة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم وهم يضعون أيديهم في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ملأ الحماس نفوسهم .

٢ - أثبت المسلمون قوتهم العسكرية أمام المشركين وهم يعرفون كيف قتال المؤمنين وثباتهم عند اللقاء .

٣ - أثبت الرسول لهم بهذه البيعة أن سكوته في تلك المدة ليس ناشئ عن ضعف في المسلمين وانما لارادة المسالمة والمهادنة .

٤ - كادت تكون جولة حربية ومعركة هائلة داخل مكة لولا أن الله تدارك ذلك بلطفه وحكمته نكف أيدي الفريقين عن بعض كما مضى ذكره في السورة الكريمة .

٥ - ما كان في وسع المشركين عندما رأوا وسمعوا بعزم الرسول على الحرب معهم الا أن بادروا بطلب الصلح واطلاق عثمان وكانوا قد احتبسوه عندها .

وأرسلوا سهيلا بن عمرو لمصالحة النبي صلى الله عليه وسلم على ماسبق بيانه وحسب الشروط المدونة ، فلما طلبوا ما يجنب الفريقين الحرب أجاب النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى فيه من المصلحة للاسلام

والمسلمين وكان هدفه السلام الذى لا نقصان على المسلمين فيه لا فى دينهم ولا فى أنفسهم .

واليك أيها القارئ الكريم نتائج هذا الصلح بايجاز :

١ - اعترفت قريش بقوة المسلمين وانهم ندا تعقد معهم الهدنة .

٢ - اذنوا للمسلمين بدخول مكة بعد عام واحد .

٣ - انفتح المجال بعد هذا الصلح للقبائل بالدخول فى الاسلام .

٤ - كثر فى هذه الهدنة عدد المسلمين وزادوا قوة الى قوتهم .

٥ - انتشر الاسلام ووصل فى هذه الهدنة الى فارس والروم وغيرهم وذلك بمكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم الى ملوكهم .

٦ - حال هذا الصلح بين قريش وبين حلفائها اليهود الذين كانوا يعاونونها على مهاجمة المدينة .

٧ - أمن المسلمون جانب قريش وحلفائها من القبائل بعد هذه الهدنة مما أتاح لهم فرصة صالحة لضرب اليهود فى خيبر ففتحها المسلمون وأخذوا غنائمها الكثيرة التى وعدهم الله بأخذها كما مر بيانه فى السورة الكريمة .

الى غير ذلك من المكاسب العظيمة التى لا يحصيها الا الله الذى قدر هذا الصلح ووقت له خير توقيت .

خسائر المشركين

وكما كسب المسلمون من هذا الصلح مكاسب معنوية وعسكرية واقتصادية كذلك خسر المشركون خسائر عديدة منها :

١ - الخسائر المعنوية : فقدوا مكانتهم المرموقة بين العرب وقد كانوا لا منازع لهم فيها . فنراهم بعد أن سمعوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ البيعة من أصحابه على مناجزتهم وحربهم تركوا رأيهم الاول وبادروا بطلب الصلح مع المسلمين .

ويؤيد هذا ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم حين قال بعض المسلمين : والله ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألونكم القضية ويرغبوا اليكم فى الامان وقد رأوا منكم ما يكرهون .

فهذا من الخسائر المعنوية التى فقدوها نتيجة لحسن سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ - ومن خسائرهم المادية :ان نتائج الصلح أتت على خلاف ما توقعوه . من ذلك انهم شرطوا على الرسول أن من جاءه مسلما من غير اذن وليه رده اليهم . فالتزم الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بذلك ووفى لهم بالعهد . فرد أبا بصير وذهب هو ومن على شاكلته من المسلمين المستضعفين بمكة وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى اضطرت أن تترجى النبى صلى الله عليه وسلم أن يأخذ كل من جاءه مسلما ولا يرده اليها . وصدق رسول الله حيث قال : (من ذهب منا اليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا) (١)

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٩٨ - ٩٩ ط الحلبى

٣ - الخسائر العسكرية : أسلم فى هذه الهدنة بعض رجالها عن يقين واقتناع بصلاح الدين الاسلامى . ومنهم خالد بن الوليد وهو من أهم من تعتمد عليه فى حروبها وأكبر قائد من قواد حربها وقد كان قائدا لجيشها فى غزوة أحد وفى عمرة الحديبية فى السنة السادسة .
بينما صار قائد جيش المسلمين فى فتح مكة بعد هذا الصلح بسنتين ومن أسلم مع خالد عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، وبهذا وغيره قد أثبتت سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحرب والمهادنة نجاحا باهرا يجنى ثماره المسلمون الى يومنا هذا .

قائمـــة المراجـــع

أ - القرآن الكريم

ب - كتب التفسير

١ - أحكام القرآن .

٢ - ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم
القاضي أبو السعود محمد العمادي ، تحقيق عبد القادر احمد عطا ،
نشر مكتبة الرياض الحديثة .

٣ - أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن
محمد الامين بن محمد المختار الشنقيطي .

٤ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل
القاضي البيضاوي ط الاولى ١٣٠٥ هـ .

٥ - التفسير الحديث
محمد عزه دروزه طبع عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣ هـ .

٦ - التسهيل لعلوم التنزيل
محمد بن احمد بن جزى الكلبي ط الثانية ١٣٩٣ هـ ، دار الكتاب
العربي بيروت .

٧ - تفسير القرآن العظيم
أبو الفداء اسماعيل بن كثير ط الاولى ١٣٨٥ هـ .

٨ - التفسير الكبير
فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي ،
ط الاولى بمصر .

٩ - تفسير المراغى
احمد مصطفى المراغى ط الثالثة ١٣٩٤ هـ .

١٠- جامع البيان فى تفسير القرآن
أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ط الثانية ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م مصور
عن طبعة بولاق بمصر ١٣٢٨هـ مصورة

١١- الجامع لاحكام القرآن
أبوعبدالله محمد بن احمد الانصارى القرطبى ط الثالثة ١٣٨٦ هـ
١٩٦٦م .

١٢- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور
جلال الدين السيوطى ط الميمنية بمصر ١٣١٤ هـ

١٣ -روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى
محمود الالوسى ط المنيرية .

١٤- زادالمسير فى علم التفسير
جمال الدين عبدالرحمن بن على الجوزى ط الاولى .

١٥ - فى ظلال القرآن
سيد قطب طبعة دارالشروق ١٣٩٤ /١٩٧٤م

١٦- الفتاوى الكبرى
شيخ الاسلام ابن تيمية الطبعة الاولى .

١٧ - فتح القدير
محمد بن على الشوكانى ط الثانية ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤م .

١٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل
جارالله بن عمر الزمخشرى نشر دارالكتب العربية بيروت .

١٩- لباب التأويل فى معانى التنزيل
علاء الدين على بن محمد الخازن مطبعة التقدم بمصر .

٢٠- محاسن التأويل
جمال الدين القاسمى ط الاولى ١٣٧٤ هـ ١٩٥٧ م .

٢١- معالم التنزيل
أبو محمد حسين بن مسعود البغوى مطبعة التقدم بمصر

ج - كتب الحديث

٢٢- جامع الترمذى

٢٣ - الجامع الصحيح
أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى ،طبعة الشعب ١٣٧٨ هـ .

٢٤- سنن أبى داود
سليمان بن الاشعث مع شرحه عون المعبود ط الثانية دار التراث العربى ١٣٨٨ هـ .

٢٥- سنن ابن ماجه
مطبعة الحلبى ١٣٧٢ هـ .

٢٦- سنن النسائى
مع شرحها للسيوطى ط الاولى دار احياء التراث العربى ١٣٨٨ هـ

٢٧- صحيح مسلم
مسلم بن الحجاج مطبعة الحلبى

٢٨- مسند الامام احمد الشيبانى
احمد بن حنبل مع ترتيبه الفتح الربانى للساعاتى .

٢٩- الموطأ
الامام مالك بن أنس

د - شروح كتب الحديث

٣٠- تحفة الاحوذى شرح جامع الترمذى
المباركفورى مطبعة الاعتماد .

٣١- شرح سنن النسائى
جلال الدين السيوطى ط الاولى نشر دار صادر .

٣٢- شرح صحيح مسلم
النووى المطبعة المصرية ومكتبتها .

٣٣- عون المعبود شرح سنن أبى داود

٣٤ - فتح البارى شرح صحيح البخارى
احمد بن على بن حجر العسقلانى ، المطبعة السلفية القاهرة .

هـ - كتب التاريخ والسيرة

٣٥- آثار الحرب فى الفقه الاسلامى
الدكتور وهبه الزحيلى مطبعة دار الفكر .

٣٦- الاسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب
محمود شلتوت .

٣٧- البداية والنهاية
أبو الفداء اسماعيل بن كثير الطبعة الاولى ١٩٦٦ م بيروت .

٣٨ - تاريخ الطبرى
أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى .

٣٩ - حياة محمد
محمد حسنين هيكل ، الطبعة الثالثة عشر مكتبة النهضة بمصر .

٤٠ - الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

٤١ - الرسول القائد
اللواء محمود شيت خطاب الطبعة الخامسة ، دار الفكر ١٣٩٤ هـ

٤٢ - زاد المعاد فى هدى خير العباد
لابى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن القيم الجوزيه مطبعة الحلبى بمصر ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م .

٤٣ - سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم
محمد عزه دروزه طبعة ثانية الحلبى ١٣٨٤ - ١٩٦٥م .

٤٤ - سيرة النبى صلى الله عليه وسلم
أبو عبد الله محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى . وهذبها أبو محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق محمد محى الدين مطبعة المدنى ، ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣م .

٤٥ - السيرة فى ضوء القرآن والسنة
الدكتور محمد محمد أبو شهبه الطبعة الثانية

٤٦ - السياسة الاسلامية فى عهد النبوة
عبد المتعال الصيدى ، الطبعة الثانية دار الفكر العربى

٤٧ - من معارك الاسلام الفاصلة صلح الحديبية
محمد احمد باسميل مطبعة دار الفكر .

٤٨- الطبقات الكبرى
محمد بن سعد مطبعة دار الفكر .

٤٩- فقه السيرة
محمد الغزالى مطبعة حسان ، الناشر دار الكتب الحديثة .

٥٠- قيام الدولة العربية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم
الدكتور محمد جمال الدين سرور . الطبعة الخامسة ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٦م .

٥١- محمد صلى الله عليه وسلم المثل الاعلى
محمد احمد جاد المولى بك الطبعة الاولى مطبعة دار الكتب المصرية

٥٢- معجم البلدان
ياقوت الحموى .

هـ - كتب اللغة

٥٣- الاشباه والنظائر فى القرآن الكريم
مقاتل بن سليمان تحقيق عبد الله محمود شحاته مطبعة القاهرة ١٣٩٥ .

٥٤- البيان فى غريب اعراب القرآن
أبو البركات بن الانبارى تحقيق : دكتور طه عبد الحميد طه . المكتبة العربية . الناشر : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م .

٥٥- القاموس المحيط
محمد بن يعقوب الفيروزأبادى ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت .

٥٦- لسان العرب

لابن منظور جمال الدين بن مكرم الانصارى طبعة مصورة عن طبعة بولاق .

٥٧- المفردات فى غريب القرآن

الراغب الاصفهانى تحقيق محمد سيد كيلانى الطبعة الاخيرة الحلبى بمصر .

٥٨- النهاية فى غريب الحديث والاثر

المبارك بن محمد الجزرى بن الاثير ،تحقيق احمد الزاوى ، ومحمود الطناحى ،عيسى البابى الحلبى .

فهرست الموضوعات